مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٩)، العدد (٣)، ص ص ١٤١٧-١٤٦٩، (رجب ١٤٣٧هـ/ إبريل ٢٠١٦)

دور الحج في إثراء العلاقات السياسية والاقتصادية بين مكة وبلاد الشام في ظل الدولة العثمانية من خلال حكم آل العظم

د. حياة مناور فرحان الرشيدي
جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ والحضارة

ملخص البحث. مما هو مؤكد ومشاهد أن للحج دوراً مؤثراً في حياة المسلمين عامة، والمجتمع المكي خاصة، فقد أثرت رحلة الحج على حياة المكيين وتقاليدهم وعاداتهم، كذلك أثر على الحجيج أنفسهم، فمن خلال تعاملهم مع أهل مكة خاصة من جلسوا منهم لتلقي العلم أو مزاولة التجارة، نراهم قد تأثروا بما في المجتمع المكي من عادات وتقاليد، فنقلوا بعضها إلى مجتمعهم عندما عادوا إليه، وتتناول هذه الدراسة دور الحج في إثراء العلاقات السياسية والاقتصادية بين مكة وبلاد الشام في ظل الدولة العثمانية من خلال حكم آل العظم "١١٣٢-١٢٢١هـ/١٧٢٠-١٨٠٧م"، وتعود أهمية الموضوع في أن الكثير من العلاقات الممتدة بين مكة وبلاد الشام الآن هي امتداد طبيعي لما كان في ذلك العهد، كما يسلط البحث الضوء على مدى تأثر الحجيج الشامي بالمجتمع المكي وكيف ظهر ذلك في مجتمعهم بعد عودتهم من أداء الفريضة. ويشتمل البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين، شملت المقدمة أسباب اختيار الموضوع وأهميته، أما التمهيد فتناول التعريف بأسرة آل العظم، وحكام مكة من الأشراف خلال فترة الدراسة. وجاء المبحث الأول ليظهر دور الحج في إثراء العلاقات السياسية بين مكة وبلاد الشام، أما المبحث الثاني فتناول دور الحج في إثراء العلاقات الاقتصادية بين مكة وبلاد الشام، وقد كشف البحث عن عدة أمور من أهمها أن مكانة مكة الدينية، ومنزلتها في قلوب المسلمين، جعلت حكام الدول العثمانية حريصين على استقرارها سياسيا، وتأمينها، وتأمين طرق الوصول إليها، كذلك كشفت الدراسة على أهمية دمشق بالنسبة للدولة العثمانية، وأن ضمان سلامة الحج ونجاحه، مرهون بالوضع السياسي والأمني بدمشق، لذا عمد العثمانيون على استرضاء أسرة آل العظم، ذات القاعدة المحلية في بلاد الشام، ويسروا لهم أسباب النهوض سياسيا واقتصاديا، كما أكدت الدراسة على دور الحج في توثيق العلاقات السياسية والاقتصادية بين مكة وبلاد الشام فترة الدراسة.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد..

فإن للحج دوراً مؤثراً في حياة الناس عامة، ومجتمع مكة خاصة، فقد تغير نمط حياة أهل مكة بالحج منذ أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذن للناس بالحج، قال تعالى: ﭽ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ ﭼ [سورة الحج، آية: ٢٧]. فصار توقيت عملهم وأشغالهم مرتبطا به، وغدا نمط حياتهم وما فيه من تقاليد وعادات متأثرا به، كما أثرت رحلة الحج على الحجيج أنفسهم، ففي مكة يطرق البعض منهم أبواب العلم، فينهل منه في أروقة المسجد الحرام، أو يمتهن التجارة التي تعينه على قضاء نسكه. ولا شك أن تعامله مع أهل مكة وتعايشه معهم هذه الفترة يجعله يتأثر بما في مجتمع مكة من عادات وتقاليد، ينقل بعضاً منها إلى مجتمعه حين يعود إلى موطنه، ومن هذا المنطلق ارتأيت أن أكتب عن دور الحج في إثراء العلاقات بين مكة وبلاد الشام، فالبحث محدود بمكان وزمان وصفة، فمكانه: مكة وبلاد الشام، وزمانه: العصر العثماني فترة حكم آل العظم لبلاد الشام "١١٣٢-١٢٢١هـ/١٧٢٠–١٨٠٧م"، وصفته: دور الحج في إثراء العلاقات بين مكة وبلاد الشام.

وتعود أهمية الموضوع لعدة أمور منها: أن الكثير من العلاقات الممتدة بين مكة وبلاد الشام هي امتداد طبيعي لما كان في ذلك العهد، والدراسات المعاصرة تعتمد على ذلك في تكييف الواقع وتحليله، كذلك يعطي البحث آفاقاً واسعة لتخيل الأوضاع العامة في مكة في العهد العثماني من خلال أثر الحج الشامي عليها، فيسد حلقة من حلقات البحث التاريخي المعاصر.

ويشتمل البحث على مقدمة تناولت فيها أسباب اختيار الموضوع وأهميته، ثم مباحث الدراسة.

التمهيد: التعريف بأسرة آل العظم، وحكام مكة من الأشراف فترة الدراسة

لقد حرصت الدولة العثمانية منذ ضم بلاد الشام لحوزتها (عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م) على استقرار الأوضاع السياسية فيها، فاتخذوا بعض الإجراءات التي تتفق وأهمية بلاد الشام بالنسبة لها، تلك الأهمية التي تنبع من كون بلاد الشام تمثل طريقا للحجيج، وكذلك تنبع أهميتها من موقعها الاستراتيجي بالنسبة للدولة فضلا عن مواردها الاقتصادية والتجارية ، فقاموا بتقسيم بلاد الشام إداريا إلى ثلاث ولايات، تنقسم كل ولاية إلى عدد من الألوية، وهي: ولاية ساحلية ومركزها طرابلس، وتضم خمس ألوية منها حمص وحماة، وولاية شمالية ومركزها حلب، وتضم خمس ألوية ، وولاية داخلية ومركزها دمشق، وتضم عشر ألوية منها فلسطين وصيدا وبيروت ونابلس وغزة، وفي عام (١٠٧٠م/١٦٦٠م) أحدثت ولاية رابعة ضمت لبنان والمناطق الساحلية الجنوبية ومركزها صيدا(١). وقد شكلت ولاية دمشق للعثمانيين أهمية خاصة عن باقي ولايات بلاد الشام، إذ كان لموقعها باعتبارها آخر مستوطنة مدينية على طريق الحج إلى مكة أهمية بالغة في الجغرافية السياسية للدولة العثمانية، فكانت الدولة العثمانية ترى أنها إذا أرادت أن تظل الوريث الشرعي للدولة الإسلامية فإنها ملزمة بضمان سلامة الحج ونجاحه، ولما كانت دمشق الملتقى السنوي للحجاج من مختلف بقاع دار الإسلام، فقد أخذت تضطلع بدور في استراتيجية وإدارة واقتصاد الحج العثماني بشكل خاص، والدولة العثمانية بشكل عام(٢).

أولاً: أسرة آل العظم

---

(١) عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤- ١٩١٤ م، (تقديم:أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م)، ص ٦١- ٦٦.

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام،(دار العلم للملايين، بيروت)، ج١، ص ٣- ٤؛ لندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، (ترجمة: عمرو الملاح، دينا الملاح، دمشق،١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص٣٩- ٤٠

وقد نبغت في الشام أسرة محلية أظهرت قدرات عسكرية في إخضاع بعض المتمردين، إضافة إلى خبراتها في السياسة والحكم، وهي أسرة (آل العظم)، وصار لها الرضا بين الناس، لذا عمد العثمانيون على استرضاء هذه الأسرة (آل العظم) ذات القاعدة المحلية، ويسروا لها أسباب النهوض سياسيا واقتصاديا آملين الإفادة من قوتها في أن تكون قاعدة لهم في بلاد الشام (٣).

وبالمقابل عمل آل العظم على استعادة هيبة السلطة العثمانية في بلاد الشام، كما أخضعوا العديد من العناصر المحلية المتمردة. وقد نهض آل العظم بهذه المهمة، وقاموا بإرساء النظام في المنطقة وأخضعوا العديد من العناصر المحلية المتمردة، فعادت العوائد إلى جريانها، وتم الحفاظ على سلامة الحج إلى مكة وأمنه.

وقد اختلفت آراء المؤرخين في أصل أسرة العظم التي حكمت في بلاد الشام زهاء قرن من الزمن بين عامي (١١٣٢-١٢٢١هـ/١٧٢٠-١٨٠٧م) تقريباً، فقيل إنها أسرة عربية، وقيل إنها تركية، غير أن جميع الآراء اتفقت على أنها صارت أسرة عربية(٤).

وقد سطع نجم آل العظم في التاريخ حينما تحقق لجدهم الأعلى إبراهيم تسلم زمام موقع عسكري في التخوم الشمالية لولاية دمشق، فقد بدأ حياته جنديا يقيم في معرة النعمان(٥)، وكان لأهلها مع التركمان(٦) التي ترد إلى جبلها شتاءً وقائع، جُرح في بعضها فحُمل إلى

---

(٣) لندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٢.

(٤) كرد علي: خطط الشام، ج ٢، ص ٢٧٥؛ تاريخ جودت، ج٧، ص ٤٧، نقلاً عن: معتصم المؤيد العظم: أسرة آل العظم من جدها إبراهيم باشا لغاية عام (١٩٩١م).

(٥) معرة النعمان، مدينة كبيرة بين حماة وحلب، تتميز بكثرة بساتينها من الفواكه والثمار، ووفرة الماء العذب من آبارها الكثيرة. ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، (دار الفكر، بيروت)، ج٥، ص ١٥٦.

(٦) التركمان مسلمون سنيون سكنوا بلاد تركمانستان، وتركيا، وقرقيزيا، وجزء من بلاد فارس، انتشروا بعد ذلك في حلب حلب وحاه وحمص واللاذقية، وغيرها من البلاد الشامية . أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، (دار الفكر ، دمشق، ط١، ١٩٤٧م)، ص ٦٧٧.

بلدته وتوفي بها[٧]، تاركا ولدا له يدعى إسماعيل بن إبراهيم العظم، وقد ولد في المعرة قبل العلم عام (١٠٥٨هـ/١٦٤٩م) وبها نشأ، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار حاكماً ببلده ثم بحماة، وأنعمت عليه الدولة بطوخين[٨] ومالكانة[٩] حماة وحمص والمعرة، كما مُنح منصب ولاية طرابلس وأمير الجردة[١٠]، وبعد عودته منها سنة (١١٣٧ ـ ١١٣٨هـ/ ١٧١٧م) تولى أمور الشام وإمرة الحج، فكان أول من ولي الشام من أسرة آل العظم، وأدى فريضة الحج ست سنين متواليات، وتوفي سنة (١١٤٥ه/١٧٣٢م)[١١].

أما أخوه سليمان باشا، فقد كان مساعداً له في تسيير أمور قافلة الحج الشامي؛ إذ كان مسؤولاً عن أمن وسلامة قافلة الحج، كما وُلي طرابلس ثم صيدا، بعدها وُلي دمشق وإمارة الحج سنة(١١٤٦هـ/١٧٣٣م)، ثم وُلي مصر عام (١١٥٢هـ/١٧٣٩م)، حيث وثقت به الدولة لإخماد الفتن بها، غير أنه انحاز لها وكادت تعصف

---

(٧) كرد علي: خطط الشام ج٢٢، ص ٢٨٩؛ محمد راغب الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، (تحقيق: محمد كمال، ط٢، دار القلم العربي، حلب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٦، ص٤٨١

(٨) الطوخ: جزء من ذيل الحصان يرفع على الراية علامة التكريم و كانت رتبه ثلاث: الأولى بطوخ و الثانية بطوخين أما الأطواخ الثلاثة فهي خاصه برتبة الوزارة أو الولاية. أما السلطان فترفع أمام موكبه سبعة أطواخ . أحمد بن بدير الحلاق "البديري": حوادث دمشق اليومية، ١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م، (تحقيق: أحمد عزت عبد الكريم، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٩م)،، ص٧٤ (حاشية).

(٩) المالكانة: تفويض من السلطان العثماني بأن يتولى الحاكم المحلي شؤون بلدته مدى الحياة. البديري: حوادث دمشق اليومية ، ص٧٤ (حاشية).

(١٠) أمير الجردة: أي أمير القافلة التي تصاحب الحجاج وتمدهم بما يلزمهم. البديري: حوادث دمشق اليومية، ص٢٩٣. (الحاشية).

(١١) محمد بن خليل بن علي المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (ط٣، دار ابن حزم، ودار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨ م)، ج٢، ص ٨؛ كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص٢٨٩؛ فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، (ترجمة: كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م)، ص٣٠٨، ٣٠٩.

بالبلاد، فقامت الدولة بعزله وإعادته الى دمشق فوليها من عام (١١٥٤هـ/ ١٧٤١م) حتى عام (١١٥٦هـ/١٧٤٣م)[١٢].

ثم تولى إمرة الحج أسعد بن إسماعيل باشا العظم، والذي ولد بمعرة النعمان سنة (١١١٧هـ/١٦٩٦م)، ثم صار نائبا عن والده بالمعرة وحماة،، ثم أنعمت الدولة عليه وعلى عمه سليمان باشا والي طرابلس (بمالكانة) حماة وتوابعها مناصفة، فذهب إليها وسار بها سيرة حسنة، وعَمَّر بها خانات وحمامات وبساتين ودوراً كثيرة، وصار أمير الجردة لأمير الحج علي باشا الوزير سنة (١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، ثم بعد عودته ولي صيدا، ثم ولي حماة سنة (١١٥٤هـ/١٧٤١م)، ثم خلف سليمان باشا في ولاية الشام، وقد أقام والياً بدمشق أربعة عشر عاما متوالية (١١٥٦- ١١٧٠هـ/١٧٤٣- ١٧٥٦م)، فكان أطول آل العظم حُكما. بعدها نقل إلى ولاية حلب، ثم نقل واليا على مصر فتمسك به أهل حلب وكاتبوا الدولة فقررت بقاءه حتى سنة (١١٧١هـ/١٧٥٧م)، ثم نقل إلى سيواس[١٣] وهناك صدر الأمر بالقبض عليه ونفيه إلى كريد[١٤]، فقبض عليه وتم نقله إلى أنقرا، وقتل من نفس العام (١١٧١هـ/ ١٧٥٧م) لاتهامه

---

(١٢) البديري: حوادث دمشق اليومية، ص ٤٠؛ المرادي: سلك الدرر، ج١، ص٩؛ كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص٢٩٣. وللتعرف بالتفصيل على قافلة الحج الشامي ونشأتها وتنظيماتها، وخط سيرها، وفترة وجودها بمكة والمدينة والعادات والتقاليد المصاحبة لها، ينظر: المحمل وقافلة الحج الشامي، لبسام ديوب، (دار الأوس للنشر والطباعة، دمشق).

(١٣) سيواس: مدينة تقع في شمال شرق تركيا. وتمتاز بجودة هوائها وكثرة خيراتها، وتوفر مائها. زكريا بن محمد بن محمود القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، (دار صادر ، بيروت)، ص ٥٣٧ .

(١٤) كريد: جزيرة يونانية في البحر المتوسط اشتهرت بحضارتها القديمة. فتحها المسلمون سنة (٢١٢هـ /٨٢٥ م) وانتزعوها من أيدي البيزنطيين، الذين تمكنوا من استعادتها سنة (٣٥٠هـ /٩٦١م) . وفي القرن (١١هـ/١٧م) استولى عليها العثمانيون، وظلت في أيديهم حتى القرن (١٣هـ/١٩م)، لتلحق بعد ذلك باليونان في القرن (١٤هـ/٢٠م). تعريف بالأعلام الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، (المكتبة الشاملة)، ج١، ص ٥٦.

بتحريض البدو على مهاجمة قافلة الحج الشامي احتجاجا على عزله من ولاية الشام[١٥].

أما سعد الدين باشا ابن إسماعيل باشا ابن إبراهيم فقد تولى سنة (١١٥٩هـ / ١٧٤٦ م) ولاية طرابلس، وأمير الجردة، ليكون معينا لأخيه في إمارة الحج، وعندما نقل إلى باشوية حلب في سنة (١١٦٤هـ / ١٧٥٠ م)، دخلت طرابلس مع صيدا تحت ولاية أخيه أسعد باشا ابن إسماعيل باشا ابن إبراهيم سنة (١١٦٦هـ / ١٧٥٢ م) ثم أعيد سعد الدين إلى طرابلس في سنة (١١٦٧هـ / ١٧٥٣ م). واستمر فيها حتى سنة (١١٧٣هـ / ١٧٥٩ م)؛ إذ جاء الأمر بعزله وضبط أمواله وممتلكاته؛ فخرج من عنده مال عظيم، ومات في ديار بكر[١٦] بالطاعون في سنة (١١٧٥هـ / ١٧٦١ م)[١٧].

كما تولى ولاية دمشق مصطفى باشا العظم، وذلك بسعي من أخيه أسعد باشا، ثم ولي صيدا في سنة (١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م)، وبقي واليا عليها إلى أن ضعفت ثقة الدولة بآل العظم فنقلته في سنة (١١٧٠ه/١٧٥٦م) إلى ولاية أضنه[١٨] وبعد قليل إلى ولاية الموصل[١٩].

---

(١٥) البديري: حوادث دمشق اليومية، ص ٥٥؛ حكمت شريف: تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمان إلى هذه الأيام (تحقيق منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري، دار حكمت شريف ودار الإيمان، طرابلس، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م)، ص ٢٤٦، ٢٤٧؛ نوفل نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، (تحقيق: ميشال أبي فاضل و د. جان تخول، طبعة: جروس برس)، ص ٣٩٨؛ رافق عبد الكريم: العرب والعثمانيون، (ط٢، مكتبة أطلس، دمشق، .١٩٩٣م)، ص ٢٣٩- ٢٦٤.

(١٦) ديار بكر: مدينة تقع في جنوب شرق تركيا، على ضفاف نهر دجلة، اكتسبت اسمها من العرب من بني بكر بن وائل الذين استوطنوها بعد الفتح الإسلامي في عهد معاوية. حسن مرنس وأخرون: أطلس تاريخ الإسلام، (ط١، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ١٢٩..

(١٧) البديري: حوادث دمشق، ص ١٩٩، ٢٣١؛ المرادي: سلك الدرر، ج١، ص٩؛ كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص٢٩٣.

(١٨) وتسمى أيضا (أدنة) ، بلدة كانت من الثغور الشامية قرب المصيصة تقع على نهر (سيحان) في منطقة كليكيا. وهي اليوم من المدن التركية. تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير ، ص ٢٤ (المكتبة الشاملة).

ومن ولاة دمشق من آل العظم محمد باشا ابن مصطفى العظم: ولد في دمشق سنة (١١٤٣هـ/١٧٣٠م)، وبها نشأ وتعلم، ثم ذهب إلى حلب سنة (١١٦٣هـ/١٧٤٩م) مع خاله الوزير سعد الدين باشا لما وليها، ولما توفي خاله، ولته الدولة العثمانية ولاية دمشق مع ما كان لديه من ولاية صيدا وذلك سنة (١١٧٦هـ/١٧٦٢م)، ثم انفصل عنها، وولي حلب سنة (١١٧٧هـ/١٧٦٣م)، وفي سنة (١١٧٨هـ/١٧٦٤م)عزل من ولايته على حلب وولي الرُها[٢٠]، فذهب إليها ولم تطل مدة إقامته فيها؛ إذ نحي عنها وولي أضنه، وقبل أن يصل إليها عهد إليه بصيدا فتوجه إليها ودخلها في سنة (١١٧٩هـ/١٧٦٥م)، ثم أبعد عنها وأعطي قونية[٢١]، ثم ولي الشام وإمارة الحج فدخلها في سنة (١١٨٥هـ/١٧٧١م)، ثم نقل منها إلى قونية سنة (١١٨٦هـ/١٧٧٢م)، ثم أعيد إلى ولاية دمشق وإمارة الحج في سنة (١١٨٧هـ/١٧٧٣م)، واستمر واليا عليها إلى حين وفاته[٢٢].

---

(١٩) الطباخ: أعلام النبلاء، ج٦ ، ص ٤٨١.

(٢٠) الرها: تقع في الجزيرة شمالي حران ، وهي بلدة قديمة تعود إلى عهد اليونان، فتحها المسلمون، وكانت "الرها" أولى الإمارات الصليبية التي تأسست في الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى، وقد استطاع القائد المسلم نور الدين زنكي استردادها من أيديهم. وهي اليوم من بلاد تركيا وتسمى أورفة . سراج الدين ابن الوردي:عجائب البلدان من خلال مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب، (تحقيق : كي استر، جامعة عين شمس، القاهرة)، ص ٨٠ ابن الأثير عز الدين الجزري: الكامل في التاريخ، (دار المعرفة، بيروت)، ج٨، ص٦٦٣- ٦٦٤ .

(٢١) قونية: مدينة كبيرة من بلاد تركيا، فتحها المسلمون في عهد الخليفة الأموي مروان الحكيم عام ١٠٥هـ/م)، بلغت ذروة مجدها حين اتخذها السلاجقة عاصمة لحكمهم، تشتهر بصناعة السجاد المنسوج بالمنازل. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، (تحقيق: حمدي الدمرداش، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص ١٩٠؛ محمد فريد بيك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، (تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص ١١٥.

(٢٢) المرادي: سلك الدرر ، ج٤، ص٩٧- ١٠٢؛ كامل بن حسين بن محمد الحلبي الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، (ط٢، دار القلم، حلب، ١٤١٩هـ)، ج٣، ص ٢٣٦؛ الطباخ: أعلام النبلاء، ج٣، ص٣٣٩ -٣٤٤؛ رسلان القاري: الوزراء الذين حكموا دمشق في العهد العثماني، (نشره: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩م)، ص٨٤، ٨٥.

وممن تولى طرابلس من بني العظم يوسف باشا ابن محمد باشا ابن مصطفى بن فارس بن إبراهيم، كان واليًا على طرابلس في سنة (١١٨٧هـ / ١٧٧٣م)، حيث وقّع التزامًا(٢٣) مع عرب آل موسى(٢٤)، كما أن خليل باشا ابن عبد الله باشا ابن محمد باشا حفيد إسماعيل باشا من ابنته تولى طرابلس سنة (١٢١١هـ / ١٧٩٦ م)(٢٥).

أما آخر ولاة آل العظم فهو عبد الله باشا العظم، الذي تقلد ولايته الأولى عام (١٢٠٩هـ/١٧٩٥م) بالرغم من انحسار نفوذ الأسرة في استانبول، وخلال عهده هذا ثارت القوات السلطانية شبه العسكرية(٢٦) المتواجدة في الأحياء الشمالية الغربية من المدينة التي كانت تدعم حكم آل العظم سابقا، وتحصنت في القلعة، ومع أن عبد الله باشا أفلح في إحكام الحصار على القلعة وأعدم رئيس القوات المتمردة، إلا أن هذه الواقعة

(٢٣) الالتزام: نظام أقره السلطان محمد الفاتح يتعهد الملتزم بموجبه بجباية الضرائب المفروضة في ناحية من النواحي لقاء مبلغٍ متَفق عليه يقدمه الملتزم، ويكون الالتزام لمدة سنة واحدة، وكان بإمكان الملتزمين أن يجددوا عقودهم لسنواتٍ عدة. عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ، ص ١٩٣– ١٩٦.

(٢٤) آل موسى : بطن من عشيرة نعيم، سكنوا أماكن عدة من بلاد الشام منها: حماة وحمص وغيرها من البوادي، وامتهنوا رعي الماشية حرفة لهم. أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، دار الفكر ، دمشق، ط١، ١٩٤٧م)، ج٢، ص١٢١، ٣١٧، ٣٩٦.

(٢٥) حيدر الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، (تعليق: نعوم مغبغب، دار السلام، القاهرة، ١٩٠٠م)، ج ٢، ص ٨٨٠، ٨٩٨؛ عبد القادر العظم: الأسرة العظمية،(مطبعة الإنشاء، دمشق،١٩٦٠م)، ص ٥٤؛ عمر عبد السلام تدمري: أوقاف سعد الدين باشا العظم، (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد ٧٧، ١٩٩٠م)، ج٤، ص ٦٦٧.

(٢٦) القوات السلطانية شبه العسكرية، هي قوات مكونه من مجموعات من متطوعين من مختلف الأجناس الإسلامية، تقوم بمساعدة القوات السلطانية العسكرية النظامية ، والتي تكونت بأمر من السلطان محمود الثاني، وقد أمدها بالأسلحة الحديثة. سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، (مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص١٥٤.

تشير إلى أن آل العظم لم تعد لهم السيطرة التامة على القوات شبه العسكرية بخلاف ما كان عليه الأمر في القرن الثامن عشر(٢٧).

وكذلك أخفق آل العظم في منع انتشار النفوذ السياسي من الساحل إلى سورية الداخلية، ونجح أحمد باشا الجزار(٢٨) في إخماد ذكر آل العظم من حيث إنهم يشكلون عامل سلطة محلية في التسعينات من القرن الثمن عشر؛ إذ اعتمد العثمانيون على أحمد باشا الجزار في التصدي للفرنسيين حينما تقدم نابليون في عام (١٢١٣هـ/١٧٩٩م) براً من مصر لغزو سورية، فولوه دمشق وقيادة القوات العثمانية لمواجهة هذه الغزو، وغدا عبد الله باشا العظم تحت إمرة الجزار لكنه ما لبث أن عاد بعد انسحاب الفرنسيين؛ ليتولى دمشق ثانية سنة (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م)، ثم تم عزله حينما قصر عن بلوغ مكة بقافلة الحج في عام (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)، وبوفاته عام (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) انتهت دولة بني العظم ولم يقم بعده أحد من ذريتهم لتولي الحكم(٢٩).

وقد عاصر عبد الله باشا العظم رجلاً آخر من آل العظم، وهو نصوح باشا العظم(١) والذي ولى هاربا من الشام إلى مصر بعيد وفاة أبيه، وبالرغم من تردي العلاقة بين نصوح باشا والعثمانيين، فقد عهدوا

---

(٢٧) هو نصوح باشا العظم بن سعد الدين باشا، ولد سنة (١١٤٧هـ / ١٧٢٦م)، وتوفي سنة (١٢٢٩هـ / ١٨٠٩ م)، تولى حكم الشام مع رتبة الوزارة وهو في مقتبل العمر، وظل في هذا المنصب مدة طويلة، وكان واليا على مصر قبل الاحتلال الفرنسي في عهد نابليون. عبد الرزاق بن حسن البيطار الدمشقي : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، (تحقيق: محمد بهجة البيطار، ط٢، دار صادر، بيروت ، ١٤١٣هـ /١٩٩٣ م)، ص ١١٩-١٢١، كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص٢٧٥.

(٢٨) أحمد باشا الجزار أو أحمد البوشناقي ، تعود أصوله إلى البوسنة والهرسك، اعتنق الإسلام في مطلع شبابه، حكم ساحل فلسطين والشام أكثر من ٣٠ عاما، استطاع صد هجوم نابليون بونابرت على عكا، كان محباً للعمارة، بنى مسجدا عظيما في عكا، توفي سنة توفي سنة (١٢١٨هـ/١٨٠٤م). البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ص: ١٢٧.

(٢٩) المرادي: سلك الدرر، ج ٤، ص ٩٧؛ يوسف جميل نعيسة: مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين "١١٨٦-١٢٥٦ هـ/ ١٧٧٢- ١٨٤٠م"، (ط١، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٦م)، ص ٣٥٤.

إليه بولاية مصر، وكان له نشاط ملحوظ في رد نابليون عن مصر، فلما تم للفرنسيين احتلال مصر سنة (١٢١٢هـ/١٧٩٨م) فر إلى الشام، ثم عاد إلى مصر مع الجيوش العثمانية في سنة (١٢١٤هـ/١٨٠٠م)، ليشهد اندحارها في معركة هليوبوليس(٣٠)، ولقد توفي نصوح باشا عام (١٢٢٤هـ/١٨٠٨م) في نفس العام الذي توفي فيه عبد الله باشا، ليكون موتهما نهاية حكم أسرة آل الأعظم على بلاد الشام(٣١).

ثانياً: أسرة الأشراف أمراء مكة المكرمة

أما عن مكة وأوضاعها في ظل الدولة العثمانية، فنظراً لمكانة مكة الدينية، ومنزلتها في قلوب المسلمين في العالم أجمع حرص حكام الدول المختلفة على مدار التاريخ على اتباع سياسة متميزة في حكم البلد الحرام، وتأمينها، وتأمين طرق الوصول إليها، فكان استقرار الأوضاع السياسة في مكة، وتمتعها بالأمن الدائم مطلباً لكل حاكم، يرنو إلى كسب محبة المسلمين في شتى أقطار الأرض. ولم يكن السلاطين العثمانيون بمنأى عن ذلك(٣٢)، فمنذ دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية وإعلان شريف مكة بركات(٣٣) تبعيته للسلطان العثماني سليم الأول(٣٤)، اعترف

---

(٣٠) معركة هليوبوليس وتسمى كذلك بمعركة (عين شمس)، نسبة للمكان الذي دارت به المعركة، وقد امتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحية، وقد هزم فيها الفرنسيون بقيادة كليبر الجيش العثماني هزيمة شديدة. علي محمد الصَّلاَّبي: الدولة العُثمانية – عَوَامل النهُوض وأسباب السُّقوط، (ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ /٢٠٠١م)، ص ٣٣٥.

(٣١) لندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص ٤٣– ٤٤.

(٣٢) كانت الحجاز تابعة لمصر أيام المماليك، ولما دخل سليم الأول العثماني مصر عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) دخلت الحجاز في تبعية الدولة العثمانية تلقائياً بدخول مصر إليها. محمد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، (ط١، القاهرة، ١٩٧٠م)، ص١٠١؛ محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق العربي، (ط١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية)، ص٣٤.

(٣٣) هو الشريف بركات بن محمد بن بركات الثاني، خلف والده في شرافة مكة عام (٩٠٣هـ/١٤٩٧م) وبقي بها حتى توفي عام (٩٣٢هـ/١٥٢٥م)، أحمد السباعي: تاريخ مكة "دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران"، (مطابع دار قريش، ١٣٨٣هـ)، ج١، ص٦٠.

العثمانيون بأشراف مكة أمراء للبلد الحرام تابعين للدولة العثمانية(٣٥). ورتبت لهم العطايا من قبل السلطان(٣٦).

كذلك رأت الدولة أن يبقى الأشراف على صلاحيتهم التي كانوا عليها في العصر المملوكي، فيكون لهم النفوذ داخل المناطق التابعة لهم، وتأمين قوافل الحج القادمة من مختلف بقاع العالم الإسلامي (٣٧).

كما أسهمت الدولة بحاميات لحفظ الأمن والهدوء، وأقامت المخافر(٣٨) على طرق الحج وعينت قائداً للجيش المصاحب لقافلة الحجيج(٣٩).

وقد شهدت مكة تعاقب عدد من الأشراف على ولايتها، كما تزامن مع عهدهم بزوغ شمس الدولة السعودية الأولى (١١٥٧هـ/١٧٤٤م) ، وقد تولى الشرافة في مكة آنذاك الشريف مسعود بن سعيد(٤٠)، والذي

---

(٣٤) هو السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني ، تولى الحكم بعد والده عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) ، كانت مدة حكمه ست سنوات قضاها في فتوحات خارجية في مناطق أوروبا ، إضافة إلى استيلائه على الشام ومصر وبسط نفوذه على الحجاز، كما تم في عهده العديد من التنظيمات الداخلية توفي عام (٩٢٦هـ/١٥٢٠م)، انظر: محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، (بيروت، دار الجيل: ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٧٨.

(٣٥) محمد عبد اللطيف هريدي: شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية (ط١ القاهرة، دار الزهراء: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص٢٥.

(٣٦) محمد كمال الدسوقي: أهمية الحجاز، (مجلة كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ع٤، ١٣٩٥هـ)، ص٤٢٥.

(٣٧) محمد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، ص١٠١؛ محمد أنيس: الدولة العثمانية والمشرق، ص٣٤.

(٣٨) المخَافِرُ : مفردها: مَخْفَر، مكان الخِفارة والحِراسة ، وهو مركز تُوضع فيه قوى من الشرطة أو الجنود للحِفاظ على الأمن والحدود. أحمد مختار عبد الحميد عمر : معجم اللغة العربية المعاصرة، (ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨ م)، ص ٦٦٩.

(٣٩) أوليا جلبي: الرحلة الحجازية، ترجمة: الصفصافي أحمد المرسي، (القاهرة، دار الأفاق العربية:١٩٩٩م)، ص٤٣.

(٤٠) هو الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد تولى إمارة مكة مرتين أولها عام (١١٤٥هـ/١٧٣٢م)، وأخرها عام (١١٤٦هـ/١١٧١م) واستمر بها حتى عام (١١٦٥هـ/١٧٥١م). أحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام حتى عام (١٣٠١هـ/١٨٨٣م)، (ط١، القاهرة، المطبعة الخيرية: ١٣٠٥هـ)، ص١٨٧.

بادر بأول احتكاك بهذه الدولة بمنع وصول السعوديين إلى مكة لأداء فريضة الحج عام (١١٦٣هـ/١٧٤٩م)، واستمر ذلك في عهد خلفه الشريف مساعد بن سعيد(٤١).

ولعل ذلك نوع من الضغط السياسي، وكسر شوكة السعوديين لدى أتباعهم.

وحين تولى إمارة مكة أخوه الشريف أحمد بن سعيد(٤٢) سمح للسعوديين بالحج(٤٣)، ولعله أراد بذلك التودد لآل سعود وكسب ولائهم.

وقد تولى شرافة مكة من بعده أخوه الشريف عبد الله بن سعيد سنة (١١٨٤هـ/١٧٧٠م)، ثم تنازل عنها في نفس العام لأخيه الشريف أحمد بن سعيد، الذي تولى شرافة مكة(٤٤).

ثم تولاها من بعده الشريف عبد الله بن حسين البركاتي سنة (١١٨٤هـ/١٧٧٠م)، ومكث فيها شهرين و ٢٣ يوما، ثم نازعه فيها الشريف أحمد بن سعيد(٤٥)، والذي مكث فيها حتى عام (١١٨٦هـ/١٧٧٢م) ليتولاها منه الشريف سرور بن مساعد بن سعيد؛ إذ ثار على عمه أميرها أحمد بن سعيد أربع عشرة مرة، ونشبت بينهما فتن وحروب انتهت باستيلاء سرور على الإمارة، واستمر فيها إلى أن توفي سنة (١٢٠٢هـ/١٧٨٧م)(٤٦)، فتولى إمارة مكة من بعده أخوه الشريف

---

(٤١) هو الشريف مساعد بن سعيد تولى شرافة مكة عام (١١٧٣هـ/١٧٥٩م)، وحتى عام (١١٨٤هـ/١٧٧٠م). عبد الله بن عبد الشكور بن محمد بن عبد الشكور هندية المكي : تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة، (مخطوط بمكتبة الحرم المكي ، رقم : ١٤٣٠)، ق٩٤، ١١٣.

(٤٢) هو الشريف أحمد بن سعيد، تولى شرافة مكة عام (١١٨٤هـ /١٧٧٠م) وظل بها حتى عام (١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م)، ابن عبد الشكور: تاريخ أشراف وأمراء مكة، ق١١٨.

(٤٣) عبد الله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية (الرياض، مكتبة العبيكان: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)،ج٢، ص٢٠١.

(٤٤) دحلان: خلاصة الكلام ، ص ٢٠١.

(٤٥) دحلان: خلاصة الكلام، ص ٢٠٥؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، (ط٥، بيروت، دار العلم للملايين،١٩٨٠م)، ج٤، ص١٠.

(٤٦) دحلان: خلاصة الكلام ص ٢٠٧؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص ١٤١.

عبدالمعين، فبقي فيها أياما ثم تولاها الشريف غالب بن مساعد بن سعيد(٤٧)، ونازعه ابن أخيه عبد الله بن سرور فقبض عليه واستتب له الأمر زمنا، وفي عهده أعلن مخالفته للإمام عبد العزيز بن سعود(٤٨)، ودارت بينه وبين الدولة السعودية عدة حروب(٤٩)، حاول في بعضها الاستعانة بأمراء الحج الشامي والمصري كما حدث في عام (١٢١٧هـ/١٨٠٢م)؛ إذ أعلن غالب الحرب على عبد العزيز والتقى الطرفان بالطائف، فظفر السعوديون بالنصر، واستولوا على الطائف، وزحفوا إلى مكة، إلا أنهم لم يدخلوها في أيام الحج حتى انتهى الموسم، فحاول الشريف غالب الاستفادة من وجود أمراء الحج المصري والشامي بمكة، وكان أمير الحج الشامي عبد الله باشا العظم، وطلب منهم أن يساعدوه، فلم يقبلوا وغادروا مكة، وانتهى الأمر به إلى أن طلب الصلح من الإمام سعود بن عبد العزيز(٥٠)، وبقي في إمارته تابعاً للدولة السعودية حتى عام (١٢٢٦هـ/ ١٨١١م)(٥١).

المبحث الأول: دور الحج في إثراء العلاقات السياسية بين مكة وبلاد الشام

(٤٧) هو الشريف غالب بن مساعد بن سعيد الحسني أمير مكة، تولى الحكم بعد أخيه، قبض عليه محمد علي وأرسله إلى مصر عام (١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) ثم إلى سلانيك وتوفي بها عام (١٢٣١هـ/١٨١٦م). دحلان: خلاصة الكلام ، ص٢٢٥؛ الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١١٥.

(٤٨) هو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام (١١٧٩هـ/١٧٦٥م)، واستمر به حتى وفاته مقتولاً عام (١٢١٨هـ/١٨٠٣م) العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١، ص ١٠٢.

(٤٩) لمعرفة المزيد عن معارك وحروب الشريف غالب مع آل سعود انظر : دحلان: خلاصة الكلام.

(٥٠) هو الإمام سعود بن عبد العزيز المعروف بسعود الكبير، تولى الحكم بعد مقتل والده، أخضع لسلطانه أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، توفي عام (١٢٢٩هـ/١٨٠٤م). الزركلي : الأعلام، ج٣، ص٩٠.

(٥١) العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، ج٢، ص٢٢٠؛ نوال سراج محمد ششة: الحجاز تحت حكم محمد علي "١٢٢٦- ١٢٥٦" / ١٨١١ - ١٨٤٠م" ، (رسالة دكتوراه كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٩٨- ١٠٣؛ جيرالد دو غوري: حكام مكة، ترجمة: محمد شهاب، (ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٢٤٨.

في ظل حكم آل العظم لبلاد الشام، توثقت العلاقات فيما بينهم وبين مكة، وعلى كافة الأصعدة، وكان للحج دور رئيس في بلورة هذه العلاقات وتميزها، فلقد كان لقوافل الحج أهمية خاصة للدولة العثمانية بشكل عام وللسلطان العثماني بشكل خاص، والذي اتخذ لنفسه لقب حامي (أو خادم) الحرمين الشريفين، وهذا يقتضي تأمين سلامة الحجاج إلى الحرمين الشريفين. وتعدّ قافلة الحج الشامي من أهم قوافل الحج في الدولة العثمانية؛ إذ كانت تضم عدداً كبيراً من الحجاج من جنسيات وقوميات مختلفة سواء عثمانية أو غيرها، فمنهم حكام العرب والفرس والأكراد والتركمان والهنود والجرجانيون والشركس والألبان والأفغان وبعض أبناء جنوب شرق آسيا وغيرهم(٥٢).

وعادة ما كانت قافلة الحج الشامي تخرج من دمشق في اليوم الرابع عشر من شهر شوال برفقة المحمل، وهو عبارة عن محفة كبيرة مجلّلة بالديباج ومنقوش عليها بعض الآيات القرآنية، ولها رصافات مموهة بالذهب، فيسيرون به وسط احتفالات بهيجة، من قبل الأهالي(٥٣)، ويشق طريقه صوب مكة، فيمر بمراحل وأماكن التوقف والاستراحات(٥٤)، إلى أن يصل إليها في أواخر شهر ذي القعدة وأوائل شهر ذي الحجة، فيخرج شريف مكة لاستقباله، وفي اليوم التالي، يقام الاستقبال الرسمي بحضور شريف مكة؛ إذ يقدم له مرسوم تجديد تعيينه، وتقدم له الخلع والهدايا تأكيداً على رضا السلطان، وعقب انتهاء مراسم الاستقبال الرسمي، وعادة ما كانت قافلة الحج الشامي

---

(٥٢) محمد كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص ٤٠ .٢٩٩؛ عبد الكريم رافق: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام ، (دار دمشق للنشر، دمشق، ١٩٨٥م)، ص ٥.

(٥٣) لمعرفة المزيد عن مظاهر الاحتفالات المصاحبة لخروج قافلة الحج الشامي من دمشق انظر: محمد بن حسين عربي الصيادي: الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، (تحقيق : صلاح الدين خليل، دار الفارابي للمعارف، بيروت، ٢٠٠٢م)، ص ١٢٦؛ نعيسة : مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٦٦.

(٥٤) لمعرفة دروب ومحطات قافلة الحج الشامي بالتفصيل انظر: سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، (دار البلاد، ١٩٨١م)، ص ١٧٦– ١٧٩.

تقيم في معسكرها في «المعلاة»(٥٥)، وفي العاشر من ذي الحجة تتجه القافلة بالمحمل إلى المشاعر لأداء فريضة الحج، وبعد انتهاء المناسك تتأهب القافلة لمغادرة مكة في الفترة ما بين ١٦ – ٢٩ ذي الحجة، وعادة ما يقف الوالي وشريف مكة بباب الصفا لوداع القافلة والمحمل، وفي بعض الأحيان يرافقه حتى الخروج من مكة (٥٦).

فإذا اقترب ركب الحج الشامي من تبوك أو معان(٥٧) أنفذ أمير الحج الجوقدار(٥٨) إلى دمشق لينقل إلى أهل الحجيج أخبار القافلة ورسائل الحجاج إلى ذويهم، فيخرج أهالي الحجاج لاستقباله، وتقام الزينة في أحياء دمشق وفي منازل الحجاج، وعادة يدخل المحمل وأمير الحج بقافلته في اليوم السادس من صفر، فيستقبل من الأهالي الذين خرجوا للقائه فرحين بلقائهم، وتقام لهم الأفراح عقب وصولهم، ويتوافد الناس عليهم للمباركة والتسليم فرحين بالهدايا التي توزع عليهم كتمر المدينة وماء زمزم وغيرها(٥٩).

ولم يكن استقبال القافلة يتم دائما بموكب فخم، بل أدت الظروف الأمنية دورا كبيرا في تحديد ذلك الاستقبال، فالحجاج كانوا يلاقون

---

(٥٥) المعلاة أو المعلى منقطة بمكة عند جبل الحجون، وتشتهر بوقوع مقبرة المعلاة على سفح جبلها في الجنوب الغربي الذي يمتد من ريع الحجون ، وتعد من أكبر مقابر مكة. عاتق بن غيث البلادي. معالم مكة التاريخية والأثرية، (ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠ م) ص ٨٠.

(٥٦) عبد العزيز العظمة: مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، (تحقيق: نجدة فتحي صفوة، دار رياض الريس للكتب والنشر، دمشق، ١٩٨٧م)، ص١١٥، ابن كنان الصالحي: المواكب الإسلامية ، تحقيق: حكمت إسماعيل، مراجعة: محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣م ، هامش رقم ٦، ص ٣٤٥– ٣٤٦.

(٥٧) معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز ، بها عيون تجري، يأتي إليها العربان لبيع ما لديهم على الحجاج. عبد القادر بن محمد الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، (تحقيق: محمد حسن إسماعيل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ج٢، ص ٦٦،

(٥٨) هو جوخدار الباشا، يترأس جردة الحج، ويصل في أواخر شهر محرم ليبشر أهل دمشق بسلامة الحجيج إن كان قد عاد سالما، أو ليطلب النجدة إن تعرض الركب للعدوان من قبل الأعراب غالبا، ويتقدم الجوخدار الموكب بنحو سبعة أيام برفقة بعض الجند حيث ينفصل عنها بتبوك. العظمة: مرآة الشام، ص ١١٦

(٥٩) البديري: حوادث دمشق اليومية، ص ٣٦.

صعوبات ومشقات في ذهابهم وإيابهم إلى الأرض المقدسة؛ لأداء فريضة الحج، فإضافة إلى طول الرحلة؛ إذ يستغرق سفر الحاج الشامي إلى مكة ومن ثم العودة ما يقارب أربعة أشهر، منها خمسون يوما تسيرها القافلة ذهابا ومثلها إيابا، تقطع فيها القافلة البَرِّيَّةُ القَفْرُ، وتتعرض فيها للمخاطر، كهجمات البدو، نتيجة تأخر مخصصاتهم أو ما كان يعرف بـ "الصُرة"(٦٠)، أو تقلبات الأحوال الجوية كالرياح العاتية والسيول الجارفة، أو ندرة المياه الصالحة للشرب، أو انعدامها(٦١).

لذا قامت الدولة العثمانية بتأمين قافلة الحج الشامي من هجمات قطاع الطرق، من خلال تعيين أمير للحج، يصطحب معه عدداً من الجنود والمدافع، وأُسندت إمارة الحج إلى والي دمشق بعد أن كانت تعهد به لحاكم نابلس وعجلون، وبدأ والي الشام يتولى إمارة الحج اعتباراً من عام (١٠٨١/١٦٧١م) حتى عام (١٢٨٢هـ/١٨٦٦م)، وفي الفترة التي تولى فيها أبناء آل العظم ولاية الشام ، وإمارة الحج، كرسّوا جهودهم على توفير أمن وسلامة قافلة الحج الشامي من هجمات البدو القاطنين في طريق الحاج، يقول البديري في حوادث سنة (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) إنه: (جاء خبر عن الحج الشريف بأنه سُلب في الحسا قريباً من القطرانة(٦٢)، وذهب على ما قيل نصف الحاج من خيل وجمال وبغال ونساء ورجال وأموال وأحمال، وقد سُلب لأحد التجار سبعة عشر حملاً، كل حمل لا

---

(٦٠) "الصُرَّة": يطلق عامة على كيس النقود ، ثم اصطلح إطلاقة على ما ترسله الدولة الإسلامية سنوياً من أموال وهدايا إلى مكة والمدينة ، وقد شاركت الدولة العثمانية في إرسال "الصُرَّة" كمخصصات سنوية إلى مكة بداية من السلطان الرابع بايزيد الأول، (ت ٨٠٥هـ/١٤٠٢م). سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، ص ١٤٤؛ لمياء أحمد عبد الله: الصرة العثمانية الموجهة إلى مكة المكرمة "٧٩١ ـ٩٧٤هـ/ ١٣٨٩ـ١٥٦٦م"، (ط١،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١٤م)، ص ٩.

(٦١) عبد الله بن حسين السويدي: النفحة المسكية في الرحلة المكية، (تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ص ٣٣٤.

(٦٢) الحسا والقطرانة منطقتان بشرق الأردن، كانت لهما أهميتهما التاريخية بسبب كونهما محطتان لقافلة الحج الشامي، إذ كان الحجيج يتزودون بما كان في أسواقهما من الزاد من طعام ومياه عذبة. الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص ٦٠؛ كرد علي: خطط الشام ، ج٢، ص٢٤٣.

يقام بثمن، فاستغاثوا بحضرة سليمان باشا العظم والي الشام وأمير الحج وقالوا نحن نهب لك مالنا، فخذه أنت ولا تتركه للعرب، وسرعان ما نهض وأخذ معه جماعة، وذهب إلى مكان الحادث، فخاطر بنفسه، ثم عاد بالأسلاب جميعها، وسلمها إلى أصحابها، ولم يأخذ لنفسه شيئا منها، وقد عدوا هذه المنقبة لمثله من الهمم العالية والمروءة السامية)(٦٣).

وحين حج أسعد باشا بالناس سنة (١١٥٧هـ/١٧٤٤م)، قرر أن يسلك بهم طريق "الفرع" بدلاً من الطريق "السلطاني"(٦٤)، وهو طريق سهل، فيه قرى كثيرة كبدر والصفراء والحمراء وغيرها، وماؤه كثير، وفيه القلاع المهيأة لذخيرة الحاج وحراسة الماء.أما طريق الفرع، فكان وعرا وصعبا، وماؤه قليل، ومسافته بعيدة، ويحصل في سلوكه للحجاج مشقة عظيمة، إلا أن أسعد باشا قرر سلوك طريق الفرع؛ لأن الأعراب قطعوا الطريق الأصلي "الطريق السلطاني"، فخشي إن ذهب منه ينتهب الحجاج؛ لكثرة ما فيه من الأشقياء من البدو، ولكن شيوخ قبائل حرب طلبوا منه سلوك الطريق السلطاني، في مقابل أن يجعلوا له رهائن في المدينة المنورة ، فإن

---

(٦٣) البديري: حوادث دمشق اليومية، ص ٣٦.

(٦٤) الطريق السلطاني : أي الطريق الرئيسي، وكان على حجاج القافلة التي تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادي فاطمة بالقرب من مكة للاتجاه إلى المدينة. ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم، ثم يتجهون إلى بئر عسفان، وتسلك طريقها حتى تصل إلى رابغ التي تفترق عندها الطرق، وإن كان أكثرها استعمالا هو الطريق السلطاني. وبالرغم من قلة مياهه فإن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة.

والطريق الفرعي هو الطريق المؤدي من مكة إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، كانت القوافل تقطعه في خمسة أيام، وهو طريق جبلي، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التي غالبا ما تكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطع الطريق مرهقا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قِصَرَه بالنسبة للطريق السلطاني تجعل منه معبرا مطروقا من قبل المشاة. لمعرفة المزيد عن طرق الحج انظر: سامي صالح المالك: درب الحج المصري همزة وصل غرب العالم الإسلامي بالحرمين الشريفين ، (بحث منشور ضمن بحوث ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، عام ١٤٢٦ هـ، جامعة أم القرى، مكة، ٢٠٠٥م)سعد بن عبد العزيز الراشد: درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة، دراسة تاريخية وحضارية أثرية، (دار الوطن، الرياض،١٤١٤هـ).

ذهب الحاج سالماً أطلقهم، وإلا قتلهم، فذهب الركب من الطريق السلطاني ووصل دمشق آمناً سالماً(٦٥).

كما عمل العثمانيون على توفير الأمن في منازل ومحطات القافلة الشامية والممتدة من الشام وحتى الديار المقدسة، فقاموا بإنشاء القلاع وتأمينها بالجند، كذلك توفير الماء لها، بحفر الآبار وإنشاء البرك، فعلى سبيل المثال: قاموا بتأمين قلعة الأخيضر والواقعة بين تبوك والمدينة ، فوضعوا فيها الجند لحراستها وحراسة برك الماء فيها؛ إذ كان حول قلعتها خمس برك مملوءة ماء، أنشأ واحدة منها سليمان باشا العظم، وحول البرك بناء عال فيه أربعة حراس يحرسون الماء من الأعراب (٦٦). كما عَمَّر سليمان باشا العظم في آبار الغنم(٦٧) قلعة وزودها بحراس من الجند، كل سنة يبدلون، ويأتي غيرهم كسائر القلاع، وكذلك عَمَّر قلعة في هديّة(٦٨).

كما استحدثت ما يعرف بـ "الجردة"، وهي إرسالية تجارية تنقل للحجيج ما يحتاجه من مأكل وملبس وغير ذلك من اللوازم الضرورية. كانت تخرج من دمشق في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة تحت حراسة عسكرية، وتلتقي بالركب في منزلة هديّة التعريف بها ، فتقيم في هذه المنزلة وما بعدها من المنازل سوقاً تجارية سيّار(٦٩).

كما أمرت الدولة بتشكيل ما يعرف بـ الدورة: هي جولة تفتيشية يقوم بها الباشا مع بعض جنوده في أواخر رجب أو في أوائل شعبان لجمع المال من سكان المناطق الجنوبية من الولاية؛ ليستعين بهذه الأموال في

---

(٦٥) السويدي: النفحة المسكية، ص ٣٣٤.

(٦٦) السويدي: النفحة المسكية ، ص ٢٩٧.

(٦٧) منزلة من منازل درب الحج الشامي، فيها آبار كثيرة، وماؤها عذب إلا أنه رديء، وسميت بذلك لكثرة ما حول الآبار من بعر الغنم لأن الأعراب ينزلون فيها، ويوردون أغنامهم منها، فتبعر الأغنام حوالي الآبار. السويدي: النفحة المسكية ، ص٣٠١.

(٦٨) هدية منزلة تقع بين العلا والمدينة المنورة، ينزل بها الحاج للتزود بالماء المجموع في حياض من ماء المطر، إذ إن ماؤها مالح غير مستساغ . الجزيري: الدرر الفرائد ، ج٢، ص٦٧٠؛ السويدي: النفحة المسكية ، ص ٣٠١، ٣٠٢.

(٦٩) البديري: حوادث دمشق اليومية، ص٢٩٣. (الحاشية).

إعداد قافلة الحج والمحمل، ثم يعود إلى دمشق في شوال(٧٠). وكان الغرض من الدورة فرض الهدوء في المناطق التي يسير خلالها المحمل وأغلبها جنب دمشق. وإظهار قوة الدولة وقدرتها على قمع أي عصيان أو حركات مسلحة في المناطق التي ستمر بها فيما بعد قافلة الركب، إضافة إلى جمع مال الدولة من هذه المناطق والذي سيستخدم في تجهيز القافلة(٧١).

كما حرصت الدولة على إرسال مخصصات القبائل البدوية؛ لتضمن ولاءها وعدم الخروج على القافلة ونهبها، وهو ما عرف بـ "صرة العربان"، وغالبا ما أدى منع الولاة لوصول الأموال إلى تلك القبائل إلى هجومها على قافلة الحج ونهبها وسلبها وقتل بعض حجاجها(٧٢).

وقد اعتاد أمراء الحاج على دفع نصف مال "الصُرَّة" في طريق الذهاب والنصف الآخر في طريق العودة. ويعمل البدو مقابل هذا المال كأدلاّء لقافلة الحاج في الصحراء. وتؤمن القبيلة سلامة القافلة في المنطقة التي تسيطر عليها. وإذا امتنع أمير الحاج عن دفع "الصُرَّة" للبدو وخاصة في طريق العودة، حيث يأمل بالاحتفاظ بها لنفسه، يقوم البدو بالهجوم على القافلة. وهذا يفسر كثرة تعرض قافلة الحاج لهجمات البدو أثناء عودته(٧٣).

---

(٧٠) البديري: حوادث دمشق اليومية ، ص ٢٦ (الحاشية).

(٧١) البديري: حوادث دمشق اليومية، المقدمة ص ٦٦.

(٧٢) محمد السنوسي: الرحلة الحجازية، (تحقيق: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨١م) ، ص ١٢٧– ١٢٩؛ آغا حسن العبد: حوادث بلاد الشام، (يوسف جميل نعيسة، دار دمشق، ١٩٨٦م)، هامش رقم ٦، ص ١٢٩– ١٣٠.

(٧٣) رافق عبد الكريم: فلسطين في العهد العثمان، (الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية، ١٩٩٠م. رئيس التحرير أنيس الصايغ، ط١، بيروت)، ج٢، ص ٧٠٢؛ رافق عبد الكريم: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، (دار دمشق للنشر، دمشق، ١٩٨٥م، وطبعة مكتبة نوبل، ٢٠٠٢م)، ص٩– ١٨.

ولعل أكبر الهجمات على قوافل الحجيج من البدو تلك التي كانت في حكم حسين باشا مكي والي دمشق والتي أدت إلى القضاء على واليها السابق أسعد العظم من الدولة العثمانية(٧٤).

ففي عهده تم نهب وسلب كل من قافلتي الجردة والحاج. إذ تم أولاً اعتراض وسلب الجردة التي خرجت لملاقاة قافلة الحج (بتاريخ ٢٠ ذي الحجة١١٧٠هـ /٥ أيلول ١٧٥٧م) من بني صخر وحلفائهم في المنطقة بين القطرانة ومعان الذين قتلوا الكثير من أفرادها(٧٥)، وبعد أن وصلت الأخبار إلى دمشق بنهب قافلة الجردة تم الاتفاق على إرسال قافلة جردة ثانية بقيادة شيخ الشام لاستقبال قافلة الحج، ولكن قافلة الجردة لم تستطع نجدة قافلة الحاج ومكثت في البلقاء بعد أن علمت بكثرة أعداد البدو ومرابطتهم على الطرق، وتبع ذلك الهجوم على قافلة الحاج في حوالي (١٠ صفر١١٧١ هـ/ ٢٤ تشرين الأول ١٧٥٧م) في المنطقة بين تبوك وذات حج(٧٦)، إذ تعرضت قافلة الحج للنهب والسلب والقتل من قبل عرب بني صخر وحلفائهم. وقبل الهجوم على القافلة تمت محاصرتها في تبوك ما يقرب من اثنين وعشرين يوماً. وقد قتل العربان معظم الحجاج وعدداً كبيراً من العسكر المرافق للقافلة(٧٧)؛ إذ لم يصل دمشق إلا القليل، ونهب العربان جميع الحجاج، أما قائد الحملة والي الشام حسين باشا فقد فر إلى قلعة تبوك، ومنها هرب إلى غزة ، ومنها أرسل إلى دمشق يطلب موافاته بقوة

---

(٧٤) خالد صافي: حسين باشا مكي، (مجلة الجامعة الإسلامي، سلسلة الدراسات الإنسانية، غزة، المجلد ١٣، العدد ٢، يونيو٢٠٠٥م) ، ص ٤٦.

(٧٥) رسلان القاري: الوزراء الذين حكموا دمشق، في ولاة دمشق في العهد العثماني، (نشره: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩م)، ص ٧٩- ٨٠؛ البديري: ص ٢٤٥- ٢٤٦؛ خالد صافي: حسين باشا مكي، ص ٤٨.

(٧٦) ذات حج: منزلة من منازل الحاج، بينها وبين تبوك مسيرة أربع مراحل أي أربعة أيام، يوجد بها بعض الآبار العذبة بها. انظر: الجزيري: الدرر الفرائد، ج٢، ص ٦٢.

(٧٧) ميخائيل بريك: تاريخ الشام "١٧٨٢-١٧٢٠م"، (تحقيق: أحمد سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢م)، ص ٥٨- ٥٩.

عسكرية، ولكن أهل دمشق رفضوا طلبه، وطلبوا منه القدوم إلى دمشق؛ إذ يوجد هناك رسول السلطان(٧٨).

وقد ساهمت عدة عوامل في عملية مهاجمة ونهب قافلة الحاج، أهمها امتناع حسين باشا مكي عن دفع مال "الصُرَّة" إلى البدو كما هي العادة المألوفة في الوقت الذي كانوا يعانون فيه من شدة القحط وجفاف المياه وقلة المرعى لاسيما منذ سنتين سابقتين للهجوم(٧٩).

كما تنامى لمسامع الدولة العثمانية أن أسعد باشا هو الذي حرض البدو على مهاجمة القافلة احتجاجا على عزله من ولاية الشام، لذا قامت بالقبض عليه وإعدامه ومصادرة أمواله سنة (١١٧١ه /١٧٥٨م)، بالرغم من المسؤولية المباشرة لحسين باشا عن حماية القافلة وتحمله مسؤولية ما حدث لها، والذي اكتفت الدولة بمعاقبته بأن عزلته من ولاية دمشق(٨٠).

ورغم ما كان يتمتع به والي الشام من مكانة سياسية كونه أمير قافلة الحج الشامي؛ إذ إن القافلة كانت تحرسها قوة عسكرية كبيرة، ذات تجهيزات عالية، ويمكن لهذه القوة أن تؤثر في القرار السياسي؛ إذ كانت مرهوبة من الحكام والعامة، إلا أنهم لم يتدخلوا في الشؤون الداخلية للحجاز إلا بالقدر الذي يسمح لهم، كأن يطلب أهل الحجاز منهم الوساطة بينهم وبين أمرائهم، أو أن يكون بتكليف مباشر من الدولة العثمانية، فعلى

---

(٧٨) ميخائيل الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد. (عني بنشره وتعليق حواشيه: قسطنطين باشا المخلصي، مطبعة القديس بولس، حريصا)، ص٧٨-٧٧؛ رافق عبد الكريم: بلاد الشام ومصر في الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت "١٥١٦ – ١٧٩٨م" دمشق، ١٩٦٨م، ص ٣٤٢.

(٧٩) رافق عبد الكريم: بلاد الشام، ص ٣٤٣؛ خالد صافي: حسين باشا مكي، ص ٤٩.

(٨٠) بريك: تاريخ الشام، ص٦١؛ البديري: حوادث دمشق اليومية، ص ٢٥٢؛ رافق عبد الكريم : بلاد الشام، ص ٣٤٣. وبقى حسين باشا في غزة حتى سنه (١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م) حيث منح رتبة الوزارة وعين والياً على ولاية مرعش، جنوب شرق الأناضول، حيث حكم هناك مدة سنة ثم عزل وأُعيد تعيينه حاكماً على غزة . وأثناء حكمه هاجم عرب بني صخر و الوحيدات بلدة خانيونس التابعة لسنجق غزة وحاصروها، فخرج على رأس عساكره لقتالهم. وقد توغل في الصحراء مدة خمسة أيام عن غزة في لحاقهم. وأثناء مطاردته لهم فر كتخداه بعساكره فبقى هو في نفر قليل مستمراً في القتال حتى قتل في يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة١١٧٩ هـ/ ١٢ سبتمبر١٧٦٥م . المرادي: سلك الدرر، ج٢، ص ٦٠- ٦٢.

سبيل المثال في أيام الشريف سرور، فإنه في سنة (١١٩٤هـ/١٧٨٠م) عزم على زيارة المدينة المنورة، فذهب إليها بحاشيته وأولاده، وفي بدر استقبله أهلها، إلا أنهم طلبوا منه العوائد التي كانت مخصصة لهم، فثار بينهم وبينه قتال انتصر عليهم فيه، ثم إن قبائل حرب القاطنة في المدينة ثارت على الشريف سرور هم وبعض أهل المدينة، فقام الشريف بقتالهم بعد أن حاصر المدينة، وعزل شيخ الحرم، وقتل في هذه الفتنه عدد كبير، وسجن عدد أكبر. وتوافق هذا مع توقيت وصول الحج الشامي إلى المدينة، فاجتمع أهل المدينة بأميره، وأخبروه بما صار واعترفوا له بالذنب، وسألوه أن يستعطف لهم الشريف سرور ويطلب منه السماح، وأن يطلق سراح من عنده من أهل المدينة(٨١)، وكان أمير الحاج الشامي في ذلك العام محمد باشا العظم، فلما وصل مكة طلب من الشريف سرور إطلاق سراحهم فرفض ولم يقبل رجاءه، فلما رجع العظم إلى المدينة أخبرهم بما صار فقبلوا عذره. إلا أنه في العام التالي (١١٩٥هـ/١٧٨١م) جاءت الحجيج وكان أمير الحج الشامي هو نفسه محمد باشا العظم، الذي كان في السنة التي قبلها وجاء في قوة عظيمة، وتوهم الناس منه حصول فتنة لما صار بينه وبين الشريف في العام السابق، من كونه لم يقبل شفاعته في فكاك أهل المدينة، ولم يحج أكثر أهل مكة خوفا من حصول الفتنة، لكن لله الحمد لم يحصل شيء مما توهمه الناس، فحج الناس في أمن وسرور، وجاءت الأمور على خلاف القياس وسافر الحج الشامي بسلام(٨٢).

فمجيء محمد باشا العظم بقوة عسكرية عظيمة مغزاه أنه يريد أن يظهر أما شريف مكة، أنه مرهوب الجانب، وأن لديه قوة عسكرية كبيرة باستطاعته توجيهها كيفما شاء، وكان بوسع شريف مكة رفع الأمر للدولة؛ لتتخذ إجراءاتها مع أمير الحج، وسبب مصاحبته لهذه القوة العسكرية الكبيرة، خاصة وأن الدولة تُسارع في القرارات التي تكفل الاستقرار في الحجاز ولاسيما في أثناء موسم الحج، ولو بعزل أمير وتولية آخر، كما حدث عندما ولي إسماعيل بن إبراهيم العظم، فإنه بعد

(٨١) دحلان: خلاصة الكلام، ص، ٢٩٠.

(٨٢) دحلان: خلاصة الكلام، ص، ٢٩٠.

عودته من الجردة سنة (١١٣٨هـ/ ١٧١٧م) تولى أمور الشام وإمرة الحج، فكان أول من ولي الشام من أسرة آل العظم، وأدى فريضة الحج ست سنين متواليات، وفي السنة السادسة تصدت له عربان قبيلة حرب، فاشتبك معها بقتال بين الحرمين أثناء إيابه فأعرض عن دخول المدينة المنورة، وتوجه عن طريق ينبع البحر الى آبار الغنم، فكتب شريف مكة وأهل المدينة في هذا الشأن للدولة العلية فعُزل، وامتُحن سنة (١١٤٣هـ/١٧٢٣م) وحُبس بقلعة دمشق وصودرت أمواله مع أموال ذويه، وفي سنة (١١٤٤هـ/١٧٢٤م) أُفرج عنه(٨٣).

وعندما شكلت الدولة السعودية الأولى خطرا على العثمانيين وبدأت تبسط نفوذها على مكة والمدينة، قررت الدولة العثمانية محاربتها من خلال والي الشام وأمير الحج عبد الله باشا العظم، وفي ذلك يقول جودت في تاريخه ما ترجمته: (لما كانت إمارة الحج من الأمور الهامة لدى الدولة فبعد المذاكرة والمطالعة لدى "مجلس المشورة" قرر توجيه هذه الإمارة إلى عبد الله باشا ، نجل محمد باشا العظم، والي حلب مع أيالة الشام الشريفة؛ نظرا للنفوذ والاعتبار الذي أحرزه أبناء العظم في تلك النواحي من بلاد السلطنة)(٨٤). ويضيف جودت في تاريخه أنه حين جاء عبد الله باشا العظم إلى مكة التمس منه ساداتها وأكابرها أن يمكث عشرة أيام زيادة عن مدة الموسم، فلم يقبل، واعتذر بعدم استعداده لمقابلة عبد العزيز آل السعود ، لشعوره بما وصلت إليه قوة عبد العزيز مما يعجز عن مواجهته، وقد توجه عبد العزيز آل سعود إلى مكة، وأقام على مسافة ثلاثة مراحل عنها، ولم يدخلها، وجاء الحجاج من كل قطر ومصر، فدعا شريف مكة الجميع للجهاد ضد ابن سعود ولكن أحداً لم يلبّ هذا الطلب سوى والي جدة، وادعوا أن الوقت غير مناسب وأن الذخائر لديهم غير كافية؛ لذلك اعتذروا وكلفوا شريف مكة أن ينذر ابن سعود أولا، وعين كل منهم موفدا من قبله فذهب الوفد إلى ابن سعود، فأجابه أنه إنما جاء

---

(٨٣) المرادي: سلك الدرر ، ج٢، ج ٨٤؛ كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص٢٨٩؛ الطباخ: أعلام النبلاء، ج٦، ص ٤٨١؛ فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص٣٠٨، ٣٠٩.

(٨٤) تاريخ جودت ، ج٦، ص ٢١١، نقلاً عن: معتصم المؤيد العظم: أسرة آل العظم من جدها إبراهيم باشا لغاية عام ١٩٩١ م.

كي يرشد الخلق إلى الطريق القويم، وأنه لا ينوي الاعتداء على الحجاج، وأنهم يستطيعون مغادرة مكة في غضون ثلاثة أيام(٨٥)، فما كان من سادات مكة إلا الطلب من عبد الله باشا العظم أن يبقى عندهم، فاعتذر، وسافر في اليوم الخامس من شهر المحرم. وفي سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) حاصرت القوات السعودية المدينة المنورة، فطلبت الدولة العثمانية من عبد الله باشا والي الشام وأمير الحج وقائد العسكر التصدي للدولة السعودية، وعدم تمكينها من السيطرة على المدينة المنورة، وفك الحصار عنها، غير أن عبد الله باشا لم يستطع فعل شيء، وذهبت وعوده التي قدمها إلى الدولة العثمانية في هذا الشأن عبثاً تذروه الرياح، فغضبت عليه الدولة وأصدرت أمرها بعزله سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)(٨٦).

وهكذا نرى أن الدولة العثمانية تعمل جاهدة على تعزيز القوى السياسية المحلية في المناطق الموالية لها، من أجل بسط نفوذها وبقاء سيطرته على الأقاليم التابعة لها.

وبالجملة كان توارد الحج الشامي على الحرمين بمثابة الميزان الذي يحفظ شيئاً من التوازنات السياسية والأمنية في البلاد المقدسة.

المبحث الثاني: دور الحج في إثراء العلاقات الاقتصادية بين مكة وبلاد الشام

تُعد مكة من أكثر بلدان العالم أمناً ورزقاً وخيراً وبركة، فدعوة نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام باقية على مر الأيام ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ (٨٧)، فاستجاب الله دعوة إبراهيم، وأغدق على أهل الحرم من الثمرات فأطعمهم من جوع وآمنهم

(٨٥) تاريخ جودت ، ج٧، ص ٤٧، نقلاً عن: معتصم المؤيد العظم: أسرة آل العظم من جدها إبراهيم باشا لغاية عام ١٩٩١ م.

(٨٦) تاريخ جودت ، ج٧، ص ٢٠٧، نقلاً عن: معتصم المؤيد العظم: أسرة آل العظم من جدها إبراهيم باشا لغاية عام ١٩٩١م.

(٨٧) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

من خوف، وقد لمس ذلك كل من سكن مكة، ففيها: (لا أحد يعوزه خبز يومه ولا أحد يخشى الأعداء)(٨٨).

ورحلة الحج فريضة وعبادة قبل أن تكون تجارة، إلا أن الله سبحانه وتعالى أباح فيها التجارة، قال تعالى: چ ڃ ڃ ڃ ڃ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک چ(٨٩)، وقال تعالى: چ گ ڳ ڳ گ چ(٩٠)، وقد كان هذا الإذن الإلهي دافعاً لرواج التجارة في أيام الحج؛ بل إن الكثير من الحجاج ممن تقصر عليهم نفقة الحج يحتاج إلى إكمال النفقة عن طريق التجارة، وبالتالي لم تقتصر الحركة التجارية على التجار دون غيرهم، بل اتسعت؛ لتشمل آحاد الناس، وإن لم يكن بعضهم يتاجر قبل ذلك، فمنهم من يشتري البضائع المكية؛ ليبيعها في بلاده لندرتها هناك، وارتفاع أسعارها، ومنهم من يجلب معه بضاعته؛ ليبيعها في مكة، وبأسعار مناسبة، تغطي تكاليف حجه وزيادة، ومنهم من يشتري الهدايا وما شاكلها؛ لتكون ذكرى من أطهر البقاع(٩١).

وكانت تجارة مكة في الجملة معتمدة على ما يأتي إليها عبر الحجيج، من كافة النواحي، ومنها الأسواق الشامية، مما أقام السوق التجارية الكبرى بها، وفي هذا الصدد يقول بيرم:(وفي مكة المشرفة أسواق كثيرة تباع بها سلع سائر الأقطار)(٩٢).

ولقد انتشرت الأسواق في مكة حول المسجد الحرام والمنطقة المركزية؛ ليسهل على الحجاج ارتيادها، ولعل أشهر أسواق مكة التي

---

(٨٨) جون لويس بوركهارت: رحلات في شبة جزيرة العرب، (ترجمة: عبد العزيز بن صالح الهلابي وعبد الرحمن الشيخ، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص١٨٧.

(٨٩) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٩٠) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٩١) لقد قدر عبد العزيز دولتشين عائدات المكيين من قبل الحجاج بنحو ٨,٥ مليون روبل سنويا. انظر: يغيم ريزفان: الحج قبل مئة سنة، "الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي "١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م" الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين على مكة ، (ط٢ ، دار التقريب بن المذاهب الإسلامية، ، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص١٥٠.

(٩٢) محمد بيرم التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، (القاهرة، ١٣١١هـ)، ص١٤٤.

ازدحمت بالبضائع الشامية، وكذلك الحجاج: "سوق الشامية" ويقع شمال الحرم الشريف عند باب السلام، ويحوي بضائع مختلفة ومتنوعة، جلبت من بلاد الشام وغيرها، فكانت تعرض فيه الفواكه المجففة والأقمشة الحريرية الدمشقية والحلبية، والأقمشة القطنية والكتانية البيضاء المصنوعة في نابلس، والمقصبة بالذهب والفضة من حلب، والكوفيات من دمشق والعباءات من حماة(٩٣).

و"سوق المسعى" الذي يعد من أكبر وأشهر أسواق مكة، يمتد من الصفا إلى المروة(٩٤)، وعادة ما يزدحم بالناس لتوافر متطلبات وحاجات السكان والحجاج في محلاته؛ إذ يحتوي على الكثير من البضائع المختلفة والمتنوعة، من ملابس وسيوف ومخطوطات من القرآن الكريم، والكتب النادرة، والعطور والمسابح والطرابيش والخردوات والعمائم والصرافة والأواني النحاسية(٩٥)، و"سوق سويقة" وتقع بالقرب من طرف المروة في الجانب الشرقي من المسجد الحرام، وقد احتوى على سلع وبضائع تهم الحاج والمعتمر كالسبح والعطور والبخور والبلسم المكي وعقود المرجان واللؤلؤ الصناعي والعقيق الأحمر(٩٦).

كما اعتاد أهل مكة على إقامة سوق في منى يعدّ من أعظم الأسواق، يباع فيها كل ما يحتاجه الحاج أو يفكر فيه بدءاً من الجواهر النفيسة إلى أدنى الخرز(٩٧).

وقد كان لقافلة الحج الشامي دور بارز في إمداد أسواق مكة بالكثير من البضائع المختلفة والمتنوعة، فقد تخصص بعض التجار المصاحبين للقافلة بجلب عدد من أنواع البضائع التي كان السوق المكي بحاجة لها،

---

(٩٣) بوركهارت: رحلات في شبه الجزيرة العربية، ص١١٥. ١١٦، وانظر رحلة محمد الحيوني المغربي إلى الحجاز عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، نقلاً عن عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة:١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)،ج٢، ص٤٨٦.

(٩٤) محمد علي مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز،(ط١، تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٦٠.

(٩٥) بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب، ص١١٢. ١١٣.

(٩٦) مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص٦٢.

(٩٧) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج١، ص٥٣.

فمنهم من تخصص بجلب السلع والمواد الغذائية كالحبوب والحنطة والأرز والسكر والشاي والسمن وغير ذلك، ومنهم من تخصص بجلب السلع والمواد الاستهلاكية كالأقمشة، مثل الصوف والحرير والقطن ونحو ذلك، وكان معظمهم له اتصال مباشر مع أربابه من التجار من بلاد الشام(٩٨).

كما زاول بعض حجاج بلاد الشام التجارة في أسواق مكة، فكانوا يجلبون معهم من بلادهم الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية، والملابس المطرزة والمزركشة، والسبح والبسط والسجاجيد، وعسل النحل والحبوب من قمح وشعير وفول وحمص وذرة، والمكسرات كاللوز والفستق والبندق والجوز، والفواكه المجففة كالتين والمشمش والزبيب، والمربى، وماء الليمون والأسماك المملحة، إضافة إلى الأواني النحاسية، والصناديق الخشبية الموشاة بالصدف، والمختلفة الأحجام والأشكال، وغير ذلك من بضائع(٩٩).

وكانت هذه البضائع التي تعج بها سوق مكة تأتي من مدن مختلفة من بلاد الشام، فعلى سبيل المثال كانت الزيوت كزيت الزيتون وزيت السمسم وغيرهما، والفواكه المجففة كقمر الدين والمشمش والزبيب والكراسيا(١٠٠) والتين، وغيرها، والمكسرات كاللوز والبندق والجوز واللوز وغيرها، والزيتون والقطن، والزعفران، تُجلب من عدة مدن، منها دمشق وحلب وحمص وحماة وغزة والقدس(١٠١).

---

(٩٨) بوركهارت: رحلات في شبه جزيرة العرب، ص١١٩؛ محمد عمر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، (ط١، منشورات نادي مكة الثقافي، مكة،١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص١٥٩.

(٩٩) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ)، ج١، ص ٤٤١؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ص ٤١، ٣٤٠؛؛ ضيف الله بن يحيى الزهراني وعادل محمد نور غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، (ط١، الغرفة التجارية والصناعية، مكة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ص٤٩.

(١٠٠) الكراسيا: شجر كالأجاص يحمل ثمرا يشبه العنب الأسود. رينهارت بيتر آن دُوزِي: تكملة المعاجم العربية، (نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٠٠ م)، ج ٨، ص ٢٢٣.

(١٠١) كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص ١٣٩- ١٤٠، ١٤٦، ١٥١، ١٥٨؛

Ghada Hashem Talhami~~, author.~~ Syria and the Palestinians: The Clash of Nationalisms (University Press of Florida, 2001) ,P 21-30

ومن البضائع الشامية التي وجدت بأسواق مكة الصابون، وكان أجوده المجلوب من نابلس؛ إذ تميز بجودته واتقان صنعته، خاصة المصنوع من زيت الزيتون، أو ماء الورد أو المسك أو العنبر أو غير ذلك من الروائح العطرية الجميلة، التي اشتهرت بها بلاد الشام، وكان يجلب من مدن عدة، اشتهرت بصناعته كدمشق ونابلس وطرابلس وحلب وعكا وحيفا وغيرها(١٠٢).

ووجدت بأسواق مكة الأقمشة والمنسوجات الشامية التي تميزت بجودتها ورخص أثمانها، مع تنوع أشكالها وطرزها كالقطنية والصوفية والحريرية والكتانية، والمقصبة والمقلمة والمخططة، والملونة والسادة، والمزركشة والقطيفة والمخملية، وغيرها، وكان أجودها المجلوب من دمشق وحمص وبعلبك ومنبج وصفد وحلب(١٠٣).

وكان يباع بأسواق مكة أيضاً الملابس الشامية كالثياب القطنية والحرير والثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان، وكذلك السراويل النسائية القطنية والكتانية المقلمة، والملونة، والأشمغة والشيلان " المناديل" التي يستعملها العرب تحت العقال أو يعتمّ بها الكثير من الرجال، والأعبئة والكوفيات والقفاطين والملاءات والشراشف والأرائك واللحف والزنانير(١٠٤) والنمارق(١٠٥) والبرانس(١٠٦) والطيالسة(١٠٧) والبراقع والأزر والجلابيب، وقد اشتهرت عدة مدن في بلاد الشام

---

(١٠٢)كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص ١٦٠.

(١٠٣) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص٩٤؛ يوسف جميل نعيسة: مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص ٦٣٩، ٦٤١.

(١٠٤) الزَنانيرُ: جمع، ومفردها: الزُّنَّارُ : حزامٌ يَشُدّ على الوسط ، ابن منظور: لسان العرب، (تحقيق: عبد الله علي الكبير وأخرون، دار المعارف، القاهرة)، ج١، ص ١٨٧٢.

(١٠٥) النمارق: هي الوسائد ، ومنها ما يفرش تحت الراكب على الراحلة. ابن منظور: لسان العرب ، ج٦، ص ٤٥٤٧.

(١٠٦) البُرْنُس كل ثوب رأْسه منه مُلْتَزِقٌ به دُرَّاعَةً كان أَو مِمْطَراً أَو جُبَّة. ابن منظور: لسان العرب ، ج١، ص٢٧٠

(١٠٧) الطيالسة: مفردها الطَّيْلسانُ : شالٌ ، وشاح ، كساء أخضر يضعه بعض العلماء والمشايخ على الكتف . محمد بن أحمد الأزهري : تهذيب اللغة، (تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ٢٠٠١م)، ج١٢، ص٢٣٤.

بصناعة مثل هذه الملابس منها دمشق وحلب وحماة وطرابلس وحمص وأنطاكية(١٠٨) وغزة(١٠٩).

أيضاً كان يباع في أسواق مكة الأسلحة المتنوعة التي أتقنت صنعتها كلٌ من دمشق وحلب كالبنادق والسيوف والخناجر، كذلك عجت أسواق مكة بالنعال الحلبية المشهورة بحسنها ورشاقتها وإتقانها، وكذلك الأواني والتحف النحاسية كالأباريق والصحون والصناديق وغيرها من أدوات النحاس والصفر(١١٠).

ولم يكن النشاط التجاري المصاحب لقافلة الحج ورواج حركة البيع والشراء في أسواق مكة هو الرافد الوحيد للانتعاش الاقتصادي بها؛ بل نشطت مهن أخرى ارتبطت بقوافل الحجاج بما فيهم قافلة الحج الشامي، فنشطت مهنة الطوافة، التي تعد من أهم المهن في المجتمع المكي على الإطلاق، فهي تشريف للمطوف الذي يقوم بخدمة ضيوف الرحمن، وتقديم المساعدة لهم، والسهر على راحتهم، وإرشادهم لأداء نسكهم على أحسن وجه، إضافة إلى ما تحققه من مردود مالي كبير من خلال تقديم خدمات الإسكان والنقل، وغير ذلك للحجاج(١١١). ولذا امتهن الكثير من المكيين

---

(١٠٨) تقع انطاكية – التي تتبع تركيا – حاليا غربي مدينة حلب على نهر العاصي قريبا من مصبه في البحر المتوسط. يعود بناؤها للعصر اليوناني، ومنها غادر هرقل سورية بعد وقعة اليرموك، فأضحت إسلامية من أهم بلاد الشام، أضحت إمارة صليبية سنة (٤٩١هـ /١٠٩٨م) ثم عادت إلى أيدي المسلمين بعد تصفية الإمارات الصليبية في الشام، . محمد بن علي الحلبي المعروف بابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (تحقيق: يحيى زكريا عَبَّارة، منشورات وزارة الثقافة بسوريا، ١٩٩١م)، ص ١٧؛ تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير ، (المكتبة الشاملة)، ص ٧٢ .

(١٠٩) كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص ١٦٠، ٢٠٤.

(١١٠) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص٩٣، ١٢٤، ٤٢٣؛ محمد بن حسن بن موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، (دار الأندلس الخضراء،١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص ٤٩٩

(١١١) أشار عدد من المؤرخين إلى أن مهنة الطوافة تعود إلى العصر المملوكي؛ إذ خصص أمير مكة بعض من العلماء وطلبة العلم ليعتني بمن يرد من أعيان الأعاجم وبعض ملوكهم إلى مكة لأداء النسك، وإرشادهم إلى الواجبات الدينية، كما قام القاضي إبراهيم بن ظهيرة بتطويف السلطان المملوكي قايتباي حين حج عام (٨٨٤هـ/١٤٤٠م). محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، (ط١، بيروت، دار خضر

الطوافة، التي كانت تحقق لهم أرباحاً كبيرة تغنيهم عن العمل في أي مهنة أخرى طيلة العام(١١٢).

كما كان الكثير من أهالي مكة خاصة من يملكون منازل قرب الحرم المكي الشريف يؤجرون منازلهم للمطوفين، أو الحجاج في موسم الحج، وبالتالي يجنون مبالغ مالية كبيرة في فترة زمنية قصيرة(١١٣).

كما نشطت مهنة الزمازمة: وهم طائفة تقوم بسقيا الحجاج من ماء زمزم في المسجد الحرام، وتقوم بإيصاله إلى بيوت بعضهم ممن يرغب ذلك، وقد يختار الحجاج إجراء سبيل في المسجد من ماء زمزم، فيتولى سقاءه وتهيئة ذلك(١١٤).

كما نشطت بعض الصناعات التقليدية التي لا غنى عنها في الحياة اليومية لأهل مكة ولا للقادمين عليها من حجاج ومعتمرين: كإنتاج السلع التموينية والمستلزمات الغذائية(١١٥). والأدوات الفخارية والنحاسية كأدوات الطعام وغيرها، وصناعة الخصف من مراوح وسفر للطعام وبسط، وخياطة الخيام، وصناعة السبح، وغير ذلك(١١٦).

وفي المقابل شكلت قافلة الحج الشامي عاملاً رئيساً من عوامل الازدهار الاقتصادي لعدد من مدن الشام وعلى رأسها دمشق؛ إذ إن

للطباعة والنشر: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، ج، ص٢٤٨. ٢٥٠؛ محمد رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ص١٦٧.

(١١٢) محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية، (ط٢، مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ)، ص٦١.

(١١٣) محمد بن حسن: المختار من الرحلات الحجازية، ص٣٢٩.

(١١٤) انظر عن هذه الطائفة: فيصل محمد عبيد: زمزم والزمازمة، (جدة، دار القبلة، ١٤١٥هـ)؛ محمد رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص١٧٤.

(١١٥) ابتسام محمد صالح كشميري: مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي "٩٢٣. ١٠٠٠هـ/ ١٥١٧. ١٥٩١م" (رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص ٣٠٠.

(١١٦) عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش: الحياة الاجتماعية في مكة، (بحث ضمن كتاب: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، زغوان، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية: ١٩٨٨م)، ص١٨٩.

تجمع أعداد كبيرة من الحجاج سنوياً في محيط دمشق، كان له آثار هامة بما يحملونه معهم من بضائع ومنتوجات، جعل المدينة سوقاً موسمياً كبيراً، فالحجاج كانوا يحملون معهم منتوجات مختلفة من بلادهم، حتى إذا وصلوا دمشق نهضوا ببيعها، أو عرض جزء منها في أسواق المدينة(١١٧).

كما قامت القيساريات والخانات(١١٨) بدور موازٍ للأسواق في حركة التجارة اليومية، أو تشغيل تجارة المواسم، التي تُعرض فيها سلع محددة حتى سميت بها، وغدت نقاط تجمع اقتصادية نشطة، شهدت مختلف أنواع المبادلات التجارية(١١٩).

وكان النشاط الذي عرفته هذه المنشآت دافعاً لبعض ولاة دمشق بالتوجه نحو بناء الخانات، ومنهم أسعد باشا العظم الذي بني خاناً باسمه، وكذلك الحال مع سليمان باشا العظم(١٢٠)، ولم يكن التوجه نحو تشييد الخانات ذا أثر على الجهة التي شيدتها، بل إنها كمرافق خدمات

---

(١١٧) ايرينا سميلنسكايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، (ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م)، ص١٧٩؛ جان سوفاجيه: دمشق الشام لمحة تاريخية، (ترجمة: فؤاد البستاني، بيروت، ١٩٦٥م)، ص١٠٢.

(١١٨) القيسارية والخان بمعنى واحد وهي أماكن للزائر والتاجر يتوقف بها للراحة والاستجمام، أو لعقد صفقة تجارية ما، وتضم مستودعات لحفظ البضائع وإسطبلاتٍ لإيواء العربات والحيوانات. الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص ١٥٧، ٣٥٧ . ولا فرق بين الخان والقيسارية من حيث الأداء الوظيفي. عبد القادر الريحاوي: خانات مدينة دمشق، (مجلة الحوليات السورية، مج ٢٥، ١٩٧٢م)، ص٤٩-٥٠.

(١١٩) وقد بُنيت هذه المكونات المعمارية التجارية وفق طراز معماري وهنّدسي واحد، بحيث كانت تتوزعها المخازن في الطابق الأرضي، بينما يحوي الطابق العلوي على حجرات مسقوفة بالقباب لها عقود، وكان يقيم بعض التجار، إلى حين الانتهاء من عرض بضائعهم وتسديد أثمانها، أو ربما أنهم وفدوا إليها في حال قدومهم للمدينة لسداد ديونهم. محمد الأرناؤوط، معطيات عن تاريخ دمشق وبلاد الشام الجنوبية، (ط١، دار أبجدية، دمشق، ١٩٩٥م)، ص ٥٦؛ لوران، درافيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، (ط١، ترجمة: أحمد ايبش، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٩٨٢م)، ص٣٠.

(١٢٠) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص٢١٩؛ ابن كنّان: الحوادث الشامية، ص١٩٩.

اقتصادية، كانت توفر عددا من الوظائف والمهن لأبناء المجتمع، فطبيعة الدور التجاري لها يقتضي توفر الحمالين والعتالة الذين يقومون بنقل البضائع، والبوابين ورجال الحراسة الذين كان أغلبهم من المغاربة، وإقامة التجار فيها للراحة في حجرات الخانات التي كانت تستلزم وجود مؤدي الخدمات مثل: بائعي الشراب، وطهاة الطعام، وصناع القهوة(١٢١).

ويضاف إلى ذلك، ما كانت توفره قافلة الحج الشامي أيضاً لعدد من أبناء دمشق وغيرها، من فرص عمل متعددة في خدمة القافلة، فمدينة دمشق بأسرها تشتغل طيلة العام بالحجاج، وإسكانهم خلال مكثهم فيها وإطعامهم والمتاجرة معهم، ثم بإعداد ما يلزمهم ويلزم "الصُرَّة" السلطانية من الزيوت والشموع والمياه العطرية كماء الورد وماء الزهر، التي ترسل إلى الحرمين الشريفين لغسل الكعبة والحجرة النبوية (الروضة الخضراء) بهما. ثم بإحضار معدّات الركب من جمال وبغال وخيول ركوب (رهوانات) وخيام (مضارب) ومحاير (محفات) وتختروانات (سرر) وقِرب ومطرات وأقبية (عبي ومشالح) وكفافي وعكل وإحرامات وأحذية وثياب وصناديق وأرسان (أعنّة) وسروج ورواحل وحلقات وأجراس وكلاليب وأكمار ومشاعل وفنارات وقطران وشموع، إلى غير ذلك مما يحتاجه الحجاج في رحلتهم ثم بتهيئة الزاد والذخيرة بين كعك وبقسماط وجبن ولحم مقل ومعجنات وخضار مجففة ومربيات وشرابات وما شاكلها. ثم بعلف الدواب وترتيب الرجال الذين يسيرون في خدمة الركب، فيقودون الجمال ويعلفونها وينصبون الخيام وينقضونها، ويملأون الماء ويجمعون الحطب ويطبخون الطعام، وهؤلاء يقال لهم بصيغة الإفراد: عكّام(١٢٢)، مكاري، قاطرجي(١٢٣)، سقّا، حمّال، أجير(١٢٤).

---

(١٢١) البديري، حوادث دمشق اليومية، ص٢٤؛ ابن كنّان، المواكب الإسلامية، ج٢، ص١١٤.

(١٢٢) العكَّامُ : الذي يَعْكِمُ الأعدَال على الدَّواب ونحوها. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، (ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص٣٢٥.

وبناءً على ما سبق فلقد كان لقوة الولاة من أسرة آل العظم، وهيبتهم التي مكنتهم من توفير الأمن لقافلة الحج الشامي خلال فترة حكمهم، دور في تنشيط الأوضاع الاقتصادية؛ إذ كانوا يصاحبون رحلة القافلة منذ خروجها من دمشق وذهابهم للديار المقدسة ومن ثم عودتها مرة أخرى مدة تستغرق ثلاثة أشهر أو أربعة، يعملون جاهدين على ضمان أمن القافلة وسلامتها(١٢٥).

ولاسيما وأنه قد تمتعت أسرة آل العظم بالثراء والثروة، لما كان لهم من أوقاف كثيرة في مصر والشام، ودمشق وحماة، كما تعاطوا التجارة، فكان لهم الخانان الكبيران اللذان شيدهما اثنان من رجال هذا البيت في دمشق: خان أسعد باشا وخان سليمان باشا، ولقد تمتعت أسرة آل العظم بمكانة مهابة في المجتمع الشامي، وفرت لها القدرة على إمارة الحج الشامي، وجعلتها قادرة على تأمين القافلة والمصاحبين لها من حجاج وتجار(١٢٦)

وعادة ما كانت قوافل الحج الشامي تحاط بالحراسة من الجند لضمان سلامتها من قطاع الطرق وهجمات البدو، أما حين يفشل الوالي في تأمين الحجيج من هجمات البدو واللصوص فعندئذ تقع الفادحة الاقتصادية، ولعلّ أكبر الحوادث ما وقع عام (١١٧٠م/١٧٥٧م) حين نهبت القافلة التي كانت تحوي ستين ألف حاج بكامل ما تحمل. ونتيجة انعدام الأمن خلال تلك المرحلة انخفض عدد الحجاج إلى نحو ألفي حاج فقط ما أثر على اقتصاد دمشق بشكل بالغ السوء(١٢٧).

---

(١٢٣) المكاري والقاطرجي بمعنى واحد يقصد به الذي يكري دواب الجر والحمل. الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص ٤٠٥.

(١٢٤) محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، (تحقيق وإضافة: ظافر القاسمي ، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م)، ج١، ص١١٤، ١٥٦، ١٨٥؛ ج٢، ص ٣١٩، ٤٦٥، ٢٨٠، ٣١٩، ٤٧٤.

(١٢٥) حول أمن القافلة وأحوال الحج انظر: البديري : حوادث دمشق اليومية، ص ٦٠؛ إبراهيم الشرعة: موقف القبائل البدوية من قافلة الحج في القرنيين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين،(مجلة دراسات، العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد، ٢٩، العدد، ٢٠٠٢م). ص٣١٩-٣٤٧.

(١٢٦) لندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص ٤٥.

(١٢٧) قسطنطين بازيلي: تاريخ سورية وفلسطين في العهد العثماني، (دار التقدم، موسكو ١٩٨٩م)، ص٤٧.

الخاتمة

لقد توصل البحث إلى عدة أمور، من أهمها:

أن مكانة مكة الدينية، ومنزلتها في قلوب المسلمين، جعلت حكام الدولة العثمانية حريصين على استقرارها سياسيا، وتأمينها، وتأمين طرق الوصول إليها، فأقامت المخافر على طرق الحج، وعينت قائداً للجيش المصاحب لقافلة الحجيج.

بين البحث أهمية دمشق للدولة العثمانية، وأن ضمان سلامة الحج ونجاحه، مرهون بالوضع السياسي والأمني بدمشق، لذا عمد العثمانيون على استرضاء أسرة (آل العظم) ذات القاعدة المحلية في بلاد الشام، ويسروا لها أسباب النهوض سياسيا واقتصاديا لتكون قاعدة لهم في بلاد الشام.

أكد البحث على مدى اهتمام سلاطين آل عثمان بالأسر التي لها دورها في مجتمعها المحلي، وقد اتضح ذلك من خلال دعم العثمانيين لأسرة آل العظم، وتقليدهم زمام الأمور السياسية في بلاد الشام، وتنوع مناصبهم.

توصلت الدراسة إلى أنه وفي ظل حكم آل العظم لبلاد الشام، توثقت العلاقات فيما بينهم وبين مكة، وعلى كافة الأصعدة، وكان للحج دور رئيس في بلورة هذه العلاقات وتميزها.

بينت الدراسة الإجراءات التي قامت بها الدولة العثمانية لتأمين قافلة الحج الشامي من خلال تولية والي دمشق أميراً للمحمل وقافلة الحج الشامي، وكذلك بناء القلاع على الدروب التي تسلكها القافلة، وتزويدها بالجند والذخيرة، ومهادنة العربان، وإرسال مخصصاتهم المالية.

بينت الدراسة أن موقف الدولة العثمانية من أسرة آل العظم من خلال مواقفهم في إمارة الحج وولاية الشام مواقف تنوعت بين السياسة الداعمة والحازمة حسبما يتطلبه الموقف.

من خلال البحث تجلت عظمة الحج في المنافع الكثيرة التي يشهدها الناس سواء أهل مكة أو القادمين عليها، ومن هذه المنافع الانتعاش الاقتصادي لمكة، وما يحققه أهلها والوافدين عليها من أرباح تجارية.

أكدت الدراسة على أن التجارة الشامية التي صاحبت قافلة الحج الشامي، كانت لها أسواق رائجة في مكة، لجودتها وتنوعها.

أهم المقترحات والتوصيات

لقد كان لرحلة الحج إلى مكة دور كبير في بلورة العلاقات بينها وبين بلاد الشام، لذا نأمل في عمل المزيد من الدراسات العلمية الرصينة التي تتناول هذا الجانب، مع إقامة ندوات علمية تكشف الضوء عن دور الحج في توثيق العلاقات بين مكة وبلدان العالم الإسلامي.

الملاحـق

صورة توضح تجمع المحمل وقافلة الحج الشامي بموقع "الميدان بدمشق" في العهد العثماني

صورة لقافلة الحج الشامي وهي تسير على درب الحج في العهد العثماني

اسم القلعة	تاريخ الإنشاء	حالها الآن
ذات الحاج	٩٧١ هـ	قائمة
تبوك	١٠٦٤ هـ	مرممة جيداً مغلقة
الأخضر	٩٣٨ هـ	تهدمت تماماً
المعظم	١٠٣١ هـ	درة القلاع
الدار الحمراء	١١٦٧ هـ	تهدمت تماماً
الحجر(مدائن صالح)	١١٦٠ هـ	مرممة ومفتوحة
زمرد	١١٩٦ هـ	قائمة +متهالكة
البير الجديد(الصورة)	١١٨٠ هـ؟	على وشك السقوط
هدية	٩٣٨ هـ	قائمة ؟؟؟
اسطبل عنتر(شجوى)	١٢٠٠ هـ؟	قائمة + متهالكة
الحفيرة	غير معروف	لم يبق الا الجدران

www.alsahra.org

القلاع التي أقامها العثمانيون وولاتهم من آل العظم بدرب الحج الشامي

نقلاً عن موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة وموقع: www.lovely0smile.com:

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات

[١] عبد الله بن عبد الشكور بن محمد بن عبد الشكور هندية المكي : تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة، مخطوط بمكتبة الحرم المكي ، رقم : ١٤٣٠.

ثانياً: المصادر

[٢] ابن الأثير عز الدين الجزري: الكامل في التاريخ، دار المعرفة، بيروت.

[٣] ابن منظور: لسان العرب، (تحقيق: عبد الله علي الكبير وأخرون، دار المعارف، القاهرة

[٤] إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ط١، القاهرة، دار الكتب المصرية: ١٣٤٤هـ.

[٥] ابن كنان الصالحي: المواكب الإسلامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، مراجعة: محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣م

[٦] أحمد بن بدير الحلاق "البديري": حوادث دمشق اليومية، ١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م، تحقيق: أحمد عزت عبد الكريم، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٩م.

[٧] أحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام حتى عام ١٣٠١هـ، ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ.

[٨] أوليا جلبي: الرحلة الحجازية، ترجمة: الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.

[٩] تاريخ جودت، نقلاً عن: معتصم المؤيد العظم: أسرة آل العظم من جدها إبراهيم باشا لغاية عام ١٩٩١م.

[١٠]حكمت شريف: تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمان إلى هذه الأيام، تحقيق: منى حداد يكن ومارون عيسى الخوري، دار حكمت شريف ودار الإيمان، طرابلس، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.

[١١]حيدر الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، تعليق: نعوم مغبغب، دار السلام، القاهرة، ١٩٠٠م.
[١٢]زكريا بن محمد بن محمود القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت.
[١٣]سراج الدين ابن الوردي: عجائب البلدان من خلال مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: كي استر، جامعة عين شمس، القاهرة
[١٤]عبدالرزاق بن حسن البيطار الدمشقي : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق: محمد بهجة البيطار، ط٢، دار صادر، بيروت ، ١٤١٣هـ /١٩٩٣ م.
[١٥] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
[١٦]عبد العزيز العظمة: مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، دار رياض الريس للكتب والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.
[١٧]عبد القادر بن محمد الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق : محمد حسن إسماعيل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م
[١٨]كامل بن حسين بن محمد الحلبي الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، ط٢، دار القلم، حلب، ١٤١٩هـ.
[١٩]محمد السنوسي: الرحلة الحجازية، تحقيق: علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨١م.
[٢٠]محمد بن حسين عربي الصيادي: الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، تحقيق: صلاح الدين خليل، دار الفارابي للمعارف، بيروت، ٢٠٠٢م.
[٢١]محمد بن خليل بن علي المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط٣، دار ابن حزم، ودار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م

[٢٢]محمد بيرم التونسي: ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القاهرة، ١٣١١هـ.
[٢٣]محمد راغب الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق: محمد كمال، ط٢، دار القلم العربي، حلب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
[٢٤]محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عَبَّارة، منشورات وزارة الثقافة بسوريا، ١٩٩١م.
[٢٥]محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، ط٢، مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ.
[٢٦]ميخائيل الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد. عني بنشره وتعليق حواشيه: قسطنطين باشا المخلصي، مطبعة القديس بولس، حريصا.
[٢٧]ميخائيل بريك: تاريخ الشام "١٧٨٢-١٧٢٠م"، تحقيق: أحمد سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢م.
[٢٨]نوفل نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، تحقيق: ميشال أبي فاضل وجان تخول، ط١، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٠م.
[٢٩]ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، دار الفكر، بيروت .
[٣٠]ثانياً: المراجع العربية:
[٣١]آغا حسن العبد: حوادث بلاد الشام، يوسف جميل نعيسة، دار دمشق، ١٩٨٦م.
[٣٢]أحمد السباعي: تاريخ مكة "دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران"، دار مكة للطباعة والنشر، مطابع دار قريش، مكة، ١٣٨٣هـ.
[٣٣]أحمد مختار عبد الحميد عمر : معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨ م.
[٣٤]أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، (دار الفكر ، دمشق، ط١، ١٩٤٧م

[٣٥]بسام ديوب: المحمل وقافلة الحج الشامي، دار الأوس للنشر والطباعة، دمشق
[٣٦]تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير(المكتبة الشاملة).
[٣٧]حسن مرنس وأخرون: أطلس تاريخ الإسلام، ط١، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.
[٣٨]خير الدين الزركلي: الأعلام، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
[٣٩]رافق عبد الكريم: العرب والعثمانيون، ط٢، مكتبة أطلس، دمشق،١٩٩٣م.
[٤٠]رافق عبد الكريم: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دار دمشق للنشر، دمشق، ١٩٨٥م، وطبعة مكتبة نوبل، ٢٠٠٢م.
[٤١]رافق عبد الكريم: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت "١٥١٦ ــ ١٧٩٨م" دمشق، ١٩٦٨م
[٤٢]رافق عبد الكريم: فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية،١٩٩٠م، رئيس التحرير أنيس الصايغ، ط١، بيروت.
[٤٣]رسلان القاري: الوزراء الذين حكموا دمشق في العهد العثماني، نشره: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩م.
[٤٤]سامي صالح المالك: درب الحج المصري همزة وصل غرب العالم الإسلامي بالحرمين الشريفين، بحث منشور ضمن بحوث ندوة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية، عام ١٤٢٦ هـ، جامعة أم القرى، مكة، ٢٠٠٥م.
[٤٥]سعد بن عبد العزيز الراشد: درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة، دراسة تاريخية وحضارية أثرية، دار الوطن، الرياض،١٤١٤هـ.
[٤٦]سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية،، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ.

[٤٧]سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، دار البلاد، ١٩٨١م.
[٤٨]ضيف الله بن يحيى الزهراني وعادل محمد نور غباشي: تاريخ مكة المكرمة التجاري، ط١، مكة، الغرفة التجارية والصناعية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م
[٤٩]عاتق بن غيث البلادي. معالم مكة التاريخية والأثرية، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠ م
[٥٠]عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
[٥١]عبد القادر الريحاوي: خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات السورية، مجلد ٢٥، ١٩٧٢م.
[٥٢]عبد القادر العظم: الأسرة العظمية، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٠م.
[٥٣]عبد الله الصالح العثيمين: تاريخ المملكة العربية السعودية، ط٨، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م
[٥٤]عبد الله بن حسين السويدي: النفحة المسكية في الرحلة المكية، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
[٥٥]عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
[٥٦]علي محمد الصَّلاَّبي: الدولة العُثمانية - عَوَامل النهُوض وأسباب السُّقوط، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ /٢٠٠١م
[٥٧]فيصل محمد عبيد: زمزم والزمازمة، دار القبلة، جدة، ١٤١٥هـ.
[٥٨]قسطنطين بازيلي: تاريخ سورية وفلسطين في العهد العثماني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م.
[٥٩]لمياء أحمد عبد الله : الصرة العثمانية الموجهة إلى مكة المكرمة "٧٩١ – ٩٧٤هـ/ ١٣٨٩ – ١٥٦٦م"، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠١٤م.

[٦٠]محمد الأرناؤوط: معطيات عن تاريخ دمشق وبلاد الشام الجنوبية، ط١، دار أبجدية، دمشق، ١٩٩٥م
[٦١]محمد بن أحمد الأزهري : تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ٢٠٠١م.
[٦٢]محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة.
[٦٣]محمد بن حسن بن موسى الشريف: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
[٦٤]محمد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، ط١، القاهرة، ١٩٧٠م
[٦٥]محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، تحقيق وإضافة: ظافر القاسمي ، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.
[٦٦]محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط١، بيروت، دار خضر للطباعة والنشر: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
[٦٧]محمد فريد بيك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل ، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م وطبعة : تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
[٦٨]محمد عبد اللطيف هريدي: شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية ط١ القاهرة، دار الزهراء: ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
[٦٩]محمد علي مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز، ط١، تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
[٧٠]محمد عمر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، منشورات نادي مكة الثقافي، مكة،١٤٠١هـ/١٩٨١م.
[٧١]محمد كرد علي: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت.
[٧٢]محمد كمال الدسوقي: أهمية الحجاز، مجلة كلية الشريعة، ع٤، ١٣٩٥هـ.

[٧٣]يوسف جميل نعيسة: مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين "١١٨٦-١٢٥٦هـ/ ١٧٧٢-١٨٤٠م"، ط١، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٦م.

ثالثاً: المراجع المعربة

[٧٤]ايرينا سميلنسكايا: البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م.
[٧٥]جان سوفاجيه: دمشق الشام لمحة تاريخية، ترجمة: فؤاد البستاني، بيروت، ١٩٦٥م.
[٧٦]جون لويس بوركهارت: رحلات في شبة جزيرة العرب، ترجمة: عبد العزيز بن صالح الهلابي وعبد الرحمن الشيخ، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
[٧٧]جيرالد دو غوري: حكام مكة، ترجمة: محمد شهاب، (ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي: ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
[٧٨]درافيو لوران: وصف دمشق في القرن السابع عشر، ترجمة: أحمد ايبش، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م.
[٧٩]رينهارت بيتر آن دُوزِي: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٠٠ م.
[٨٠]فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.
[٨١] لندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح، دينا الملاح، دمشق، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م،
[٨٢]خالد صافي: حسين باشا مكي، مجلة الجامعة الإسلامية سلسلة الدراسات الإنسانية، غزة ، المجلد ١٣، العدد ٢، يونيو٢٠٠٥م.
[٨٣]يغيم ريزفان: الحج قبل مئة سنة، "الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي "١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م" الرحلة السرية للضابط الروسي عبد العزيز دولتشين على مكة ، ط٢ ، دار التقريب بن المذاهب الإسلامية، ، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

رابعاً: الرسائل الجامعية

[٨٤]ابتسام محمد صالح كشميري: مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي "٩٢٣-١٠٠٠هـ/ ١٥١٧- ١٥٩١م" ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

[٨٥]نوال سراج محمد ششة: الحجاز تحت حكم محمد علي "١٢٢٦-١٢٥٦" / ١٨١١ - ١٨٤٠م" ، رسالة دكتوراه كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ، مكة: ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م

خامساً: البحوث العلمية في المجلات والدوريات

[٨٦]عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش: الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة، بحث ضمن كتاب الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية، ١٩٨٨م.

[٨٧]إبراهيم الشرعة: موقف القبائل البدوية من قافلة الحج في القرنيين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، مجلة دراسات، العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد٢٩، ٢٠٠٢م.

[٨٨]عمر عبد السلام تدمري: أوقاف سعد الدين باشا العظم ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، العدد ٧٧.

سادساً: الكتب الأجنبية

[89] Ghada Hashem Talhami, author. Syria and the Palestinians: The Clash of Nationalisms (University Press of Florida, 2001

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

Dr. Hayat Menawer Farhan AL Rashidi
Umm AL Qura University
Faculty of Sharia and Islamic
Department of History and Civilization

Abstract. Which is certain that Hajj have a influential role in Muslims life in general , and Makkah Community specifically , Pilgrimage has affected the lives of Makkah people, traditions , and customs, as well as also affected the pilgrims, it is through their dealings with the people of Makkah in particular who sat to receive the science or practice of commerce, we see them affected by the customs and traditions of the community in Makkah, they took some of these customs and traditions to their communities when they returned to it, This study addresses the role of the pilgrimage to the enrichment of the political and economic relations between Makkah and the Levant under the Ottoman Empire, through the rule of the Alazm " 1132-1221 Ah – 1720-1807 Ad " .

The importance of the subject back to the Ottoman era is a natural extension of the historic modern era, so many of the extended relations between Makkah and the Levant now is a natural extension of what was in that era, also sheds light on the extent of research influenced of the Levant pilgrims with Makkah society, and how that appeared in their community after returning from a pilgrimage.

The study includes an introduction, reboot, two chapters.

Introduction included the reasons for choosing the topic, its importance, and the boot included a definition of family of Al-Alazm, and supervision of the rulers of Makkah during the study period.

The first chapter has contained the impact of the pilgrimage to the enrichment of the political relations between Makkah and the Levant, The second chapter handled the role of pilgrimage in enriching the economic relations between Makkah and the Levant, The study revealed several things, the most important of the Makkah religious status, and its status in the hearts of Muslims, made the rulers of the Ottoman countries are keen to political stability, and security, and secure access to roads, as well as the study revealed the importance of Damascus for the Ottoman Empire, and to ensure the safety of the pilgrimage and success dependent on the political and security Damascus situation, so interested Ottomans consent of the family of Al Alazm, with local Al-Qaeda in the Levant, and facilitated them the reasons for the political and economic renaissance, as the study emphasized the role of pilgrimage in closer political and economic relationship between Makkah and the Levant study period.